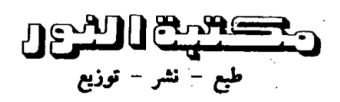
الدكتور عبد الوهاب عزام

النفحات

مكتبة النور



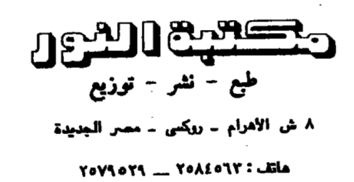
الدكتور
عبد الوهاب عزام



طبع - نشر - توزيع

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه كلمات من النثر وأبيات من الشعر . كتبتها فى رمضان من ثلاث سنوات :

بدا لى وأنا فى كراجي أول رمضان عام سبعين وثلاثمائة وألف ، أن أخط كل ليلة مقالا قصيراً فيما يخطر من خاطرات الوقت ، وما يسنح من سانحات الفكر ، ويسّر الله الكتابة فوفيت بما وعدت به نفسى .

وكرّت الأيامُ كرورَها ، ومرّت الشهور مُرورَها ، فإذا رمضان من عام واحد وسبعين ، وإذا أنا لا أزال فى كراجي . فرأيت أن أعالج كل ليلة أبياتاً أقيّد بها خَطْرة شاردة ، وأسجل فيها فكرة واردة ، فنظمت أبياتاً كل ليلة .

ورأيت أن أطبع مانثرت وما نظمت ، حينما قدمت إلى القاهرة منذ ثلاثة أشهر . فقدمته إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر . ورجوت أن ترسل إلىّ تجارب الطبع فى كراجي . وسافرت .

وسُئلت عن اسم الكتاب حينئذ فقلت لا أدرى ، وسأسمّيه من بَعد .

وقبل أن ينجز طبع الكتاب أقبل رمضان الثالث ، رمضان سنة اثنتين وسبعين . فبدا لى أن أكتب كلمات بين النظم والنثر كل ليلة . والتزمت أن أخط كل ليلة عشر سجعات ، وألحِق بها بيتين من الشعر . ومضى رمضان وقد وفيت بما التزمت .

وعرض لى القدوم إلى القاهرة فألحقت هذه الكلمات بما قدّمت إلى المطبعة قبلا . وسميت هذه الطوائف الثلاث من الكَلِم : « النفحات » . أوحى إلىّ هذه التسمية كتاب الشيخ عبد الرحمن الجامى المسمّى « نفحات الأنس من جناب القُدس » .

والله أسأل أن يلهمنا ويعلّمنا ويهدينا ، ويرزقنا الإخلاص والسداد فى الفكر والقول والفعل . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

القاهرة لثلاث عشرة خلت من شوال ١٣٧٢هـ
٢٤ حزيران ١٩٥٣

عبد الوهاب عزام

رمضان سنة ١٣٧٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة الخميس { ١ رمضان بحساب باكستان — ٧ حزيران ١٩٥١
(٣ رمضان بحساب مصر)

هلال رمضان

رأى الناس هلال رمضان فى مصر ، ليلة الاثنين خامس حُزيران . وحكم القاضى بثبوت الرؤية ، وأصبح الناس صائمين . وكان أولُ رمضان فى مصر موافقاً التاسع والعشرين من شعبان فى باكستان . وغربت شمس الاثنين ومضى هزيع من الليل ، الليلِ الثانى من رمضان بحساب مصر ، ولم نسمع خبراً عن هلال رمضان فى باكستان .

وفى دار الأستاذ أحمد أبى بكر عبد الحليم رئيس المؤتمر الإسلامى — وكانت بها وليمة زواج — لقيت الشيخ عبد العليم الصديقى الداعى إلى الإسلام فى بقاع الأرض والشيخ عبد الحامد البدايونى رئيس جماعة علماء الباكستان . وحدّثتُ كلاً فى هذا الاختلاف بين أقطار المسلمين فى رؤية الأهلة . قلت للبدايونى :

عَهِدنا الاختلاف في يوم ، لا في يومين . قال نعم . ثم قال : أحسب الخلاف بين مصر و باكستان في يومين منذ جمادى الأولى . فكتبت عنه من تقويم معه مبادئ الشهور من جمادى الأولى إلى شعبان . ثم راجعتها من بَعد على التقويم المصري فوجدت الخلاف يوما واحداً في الشهور الأربعة . يتأخر تقويم باكستان عن مصر يوما .

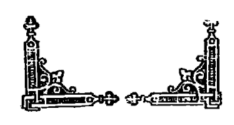
وقلت للشيخ الصديقي : ماذا ترى في هـذا الخلاف ؟ قال من صدّق أن الهلال رُئي في مصر ليلة الاثنين يجب عليه الصوم . قلت سمعنا في الإذاعة . قال : إن أيقنت بخبر الإذاعة ولم تشك أن يكون مذيع في جبال هملايا مثلا يقول هنا القاهرة ، فعليك الصوم — قال هـذا ضاحكاً — قلت : الحنفية يقولون لا عبرة باختلاف المطالع . فإذا رأى الهلال أهلُ بلد ، وجب الصوم على سائر البلاد . قال : والشافعية يقولون : يعتبر اختلاف المطالع ، إن كان بين البلد الذي يرى الهلال والبلد الذي لا يراه ، بعـداً قدّروه . وأظنّه مسيرَ يومين .

وقلت لبعض الحاضرين : هـذا أمر نُكرٌ . يجب على المسلمين أن يتفقوا على الصوم حين يُرى هلال رمضان في أحد أقطار الإسلام ، ولا يضير القطرَ الذي لم ير الهلال ، أن

يصوم مع الفطر الذى رآه ، وتقدم الصوم يوماً أو تأخره أمر أَمَم بالقياس إلى اختلاف المسلمين .

وأرى أن يتخذوا مكة ، وفيها قبلتهم ، إماماً فى إثبات الأهلة ، بعد أن يجعلوا بها مرصداً ، ويوفروا فيها وسائل التحرى والمعرفة ، ويصوم المسلمون حين يُرى الهلال فى مكة . ومن رآه قبل أن يُرى فى مكة أبرق إلى من فيها من أهل هـذا الشأن ليروا رأيهم . ومن مكة تتلقى بلاد المسلمين إثبات الأهلّة .

إن الإسلام دين التوحيد فى كل الأمور ودين الجماعة . فما هذا التفرق ، وما هذا التهاون بهذا التفرق ، وله فى المسلمين آثاره ؟



سُنن رمضان

لرمضان سُنَنٌ ، تنبغي العناية بها ، وعادات تحسن المحافظة عليها.

فالاجتماع لصلوات التراويح من السنن التي تزيد في جمال رمضان وجلاله . والسهر في الدور الكبيرة من المدن والقرى لسماع القرآن ، من العادات الحسنة ، التي تميز هذا الشهر ، وتزيد إلى خير الصيام خير سماع القرآن . والتزاوُر في ليالي رمضان يزيد الألفة بين الناس ، ويَقرِن تزاورَهم بالعبادة ، و يجعل على هذا التزاور مَسحة من الدين ، وصلةً بأخوة الإسلام . بل هذه الأطعمة التي يُعنَى بها الناس في رمضان ، من خيرات هذا الشهر ومزاياه ، تسرّ الناسَ في غير ضرر ، وتمتّعهم دون إفساد ، ما لم يَغلوا ويُسرفوا . ولَعب الأطفال بالمصابيح الملونة وسيرهم في الطرق منشدين أناشيد رمضان ، سرور وجمال و إحياء لرمضان وإشاعة لبرّه بين الصغار . والمسحرون يطوفون بطبولهم وأغانيهم على علاّتها ، وعلى ما في هذا الطواف من إيقاظ النائم قبل موعد السحور ، و بثّ الضوضاء في هدوء الليل ، هم من بركة هذا الشهر ومسراته و بهجته ورونقه .

* * *

فالذين يستهينون بهذه السنن ، لا يعرفون الحقائق ولا يدركون ما لسُنن الأمم من آثار فى معيشتها وأخلاقها . والذين يحقِرون عادات رمضان غافلون عما وراءها من معانٍ جديرةٍ بالإكبار ، حريّة بالبقاء .

لقد بُلينا بالعبودية النفسية التى أجلّت فى أعيننا ونفوسنا ، عادات غيرنا ، وأصغرت عاداتنا . فمنا الذى هَجر سُنن رمضان وازدراها ، ومنا من شارك فيها غير حَفِىّ بها ولا بصير بمعانيها ، سيراً مع العادات ، وحياء من الناس .

كنا نعيش فى دُورنا ، وهى مجامعنا وأنديتنا ، تؤلف بيننا وتُحكم فينا التعاونَ والتآخى . فنشأت لنا عادات صالحة . واليوم نعيش فى غير الدُّور ، بل نعيش فى غير أنفسنا ، فتمّحى السنن الصالحة ، والعادات الطيبة ، ونحن شاعرون أو غير شاعرين .

ولولا أن كلمتى هذه مقصورةٌ على رمضان ، لذكرت كثيرا من العادات النافعة ، والآداب الصالحة ، التى تزول من بيننا سَنة بعد سنة ، ونحن من الغفلة أو من احتقار أنفسنا وما يتصل بها ، لا نبالى بها ونهجرها ونستبدل بها عادات طارئة لا رأى لنا فيها ولا عمل ولا نفع .

إن رمضان شهر عبادة ورياضة وبرّ . وإنه شهر فرح وبهجة وزينة ومتعة . فلنحرص على عبادته ورياضته وبرّه . ولنحرص على بهجته وسروره وزينته . ولنحذر أن نفقد سنننا الصالحة فنعيش بغير سُنن أو على سنن سيئة أو سنن غريبة لا تعرفنا ولا نعرفها ، نُقبل عليها تقليداً ، ولا نملك لأنفسنا فيها تصريفا ، لم ننشئها ولم نخترها فلا نسكن إليها ولا تسكن إلينا .

ليلة السبت ٣ رمضان — ٩ حزيران

أفسد الناس الترف

قلت لأمير الحج المصري في مكة — وأنا يومئذ وزير مصر المفوض في المملكة السعودية ، وقد كثرت شكاوى المترفين من مشقات الحج — : أفسد الناس الترف فعجزوا عن احتمال الصعاب فكثرت شكاواهم . وليست المشقة الواقعة في الحج حلّه وترحاله ، على قدر هذه الشكاوى . ولا بد للناس من المران على احتمال المشقات و إن أغنتهم عنها الحضارة والترف .

وأ كتب الليلةَ ، وهي ثالثة ليالي رمضان ، أن كثيراً من الناس يُشفقون من الصيام بما مرنوا على الطعام والشراب في أحيان متصلة ، ودربوا على التدخين وشرب القهوة وأشباهها في أوقات متقاربة ، وبما تعودوا أن ينالوا ما يشتهون ، وألاّ يُحرموا أنفسهم ما تميل إليه . من الناس قادر على الصوم بدناً عاجز عنه نفسا . ومنهم من يضعف عنه بدنه ، بما أُترف وأُضعف بالإفراط في الطعام والراحة . وكلا الفريقين في حاجة إلى الصيام دواء لدائه ، وطبًّا لترفه . ونحن نصدّقهم إذا قالوا : عجزنا . وعليهم أن يصدقونا إذا قلنا : في الصيام وأمثاله طبّ لهذا العجز .

أذ كر أن صاحبا لي مصريا قال لي في لندن ، وكلانا

إذ ذاك في عنفوان شبابه : لا أصلّى لأنى لا أستطيع الصلاة ، إن رجليّ لا تطوعان للسجود . قلت هذا أدعى إلى أن تصلى . لو صليت لمرنَتْ جوارحك على الحركات كلها . فليس عجزك عن السجود إلا دليلا على أنك فى حاجة إليه . فصلِّ عبادةً ورياضة . لا ينبغى أن تقاس واجباتنا بما نقدر عليه وما لا نقدر ، فى عللنا وأحوالنا العارضة ، وإنما تُقاس بطبيعة الإنسان الصحيح ، وما ينبغى للإنسان الكادح لعيشه وصلاح أمره وأمور جماعته .

لا ريب أن كثيراً من الناس لهم أعمال شاقة لا يسعهم القعود عنها ، ولا يُعفيهم العيشُ منها . فلهؤلاء العذر إن أفطروا والله أعلم بأعذارهم . وآية العجز عن الصيام والعذرِ فى تركه أن يتمنى الإنسانُ مخلصا أنه قدر على الصوم ، ويأسف مخلصا لعجزه عنه . وآية التعلل فى الإفطار والتعذير فيه ، أن يرغب الإنسان عن الصيام ، ويلتمس الأعذار ليفطر ، ويكره أن تُعوزه الأعذار فيصومَ .

إن كثيراً من الناس دأبوا على كراهة كل حرمان من مُتعة كبيرة أو صغيرة ، وانقادوا لشهواتهم فهى قانونهم . ما أحوج هؤلاء إلى أن يُرَبّوا بالمنع عما يرغبون ، والدُّربة على احتمال ما يكرهون ؛ حتى تستقيم لهم نفوس تلذ المشاقّ ، وتقدم عليها وتصبر لها .

الاختلاف فى التوقيت

أقرأ فى صحف باكستان هذه الكلمات :

الإفطار والسحور . يوم كذا من رمضان

جمعية علماء باكستان

وقت الإفطار ٧ و ٥٠ دقيقة

انتهاء السحور ٤ و ٤٢ «

هيئة علماء الإمامية

وقت الإفطار ٧ و ٥٨ دقيقة

انتهاء السحور ٤ و ٣٥ «

ومعنى هذا أن لجمهور المسلمين وقتاً للإفطار وللإمساك ، تبيّنه جماعةُ علماء باكستان ، وللشيعة الإمامية وقتاً آخر تبينه هيئة علماء الإمامية . وإنه لأمرٌ محزن مخجل ، يُحزن كلَّ مسلم عاقل ويخجله أن يَرى افتراق المسلمين حتى فيما لا يقبل الافتراق ، إفطارِ الصائم الموقوت بغروب الشمس ، وإمساك الصائم الموقوتِ بطلوع الفجر .

شجَر خـلاف بين المسـلمين ، بل بين الأمم كلها ، فى أمور يختلف فيها الرأى ، و يفترق فيها الفكر ، وفى أمور تختلف فيها النزعات ، وتُفرّق فيهـا العواطف . وذلـكم خـلاف لم يُقصَد إليه ولـكن أدّى إليه اختلاف الأقطـار والطبائع والعواطف وهلم جرّا ؛ ولـكن هذا الخلاف بين أمة محمد فى الإفطار والإمساك ، خلافٌ قُصد إليه قصداً . لا سبب له إلا قصد المخالفة . فقد جرى جماعة من المسلمين ، أمة التوحيد والأخوة ، على أن يمتازوا عن إخوانهم فى العيـدين ، وفى وقفة عرفات . سمعت فى العراق أن الشيعة يعمِدون إلى اتخاذ عيد غير عيد أهل السنّة ، قبلَه أو بَعـده ، وكان بعض الشيعة يخالف فى وقفة عرفات . ومنعَهم الملك عبد العزيز وألزمهم الوقوف حين يقف جمهور المسلمين .

فهذا الخلاف فى الإفطار والإمساك ليس خلافا فى حساب الفلَك ولا آلات الرصد ، ولا خلافا بين آفاق مختلفة ، وأقطار متباعدة ، ولـكنه خـلاف أدى إليه الحرصُ على الخلاف ، حرصُ المسلمين على أن يفترقوا .

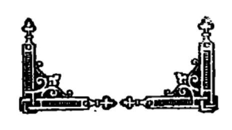
إن الإسلام دين عمادُه التوحيد ، توحيدُ الله وتوحيدُ الأمم فى دعوة الإسلام ، وتوحيد المسلمين . فمن قصد إلى الخلاف بين

المسلمين فقد أصاب الإســلام فى قواعده ، وشاقّه فى أصوله ...
ما هذا يا أمة الاخوة ؟ ما هذا أيها المسلمون ؟

إنى لأقول مخلصا : إن ترك الصيام ، وهو فريضة ، أهون عند الله من اختلاف المسلمين فى توقيته إن كان هــذا الخلاف كراهية الوفاق بين الأمة الواحدة ، وحب التفريق بين جماعة إلى توحيد الأمم داعية .

لقد أصاب المسلمين ما أصابهم . ولا تزال القارعات تُصيبهم أو تَحُل قريبا من دارهم ، وهم على كثرة النُذُر غافلون ، وعلى توالى القارعات سادرون ، وإنهم لا يُفيقون ويرعوون ، ولــكنهم فى خلافهم ماضون

(وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) !



مواضع الاجتماع والافتراق

صليتُ العشاء والتراويح الليلة وراء إمام يمنى عاش فى الشام ، وعلى يمينى وشمالى خدم السفارة . وكم صلى الأغنياء وراء الفقراء أو فى صفهم ، وصلى الرؤساء فى صف المرءوسين أو وراءهم ، وسجد السادة مع المسودين أو خلفهم ، سنّة الإسلام فى المؤاخاة والمساواة .

قلت إن انتظام الجماعة يكون بالاجتماع فى مواضع الاجتماع ، والافتراق فى مواضع الافتراق . الناس تجمعهم الأخوة والمساواة ، يستوون فى أن على كل واجباته ولكل حقوقه ، ولكن الحقوق والواجبات تختلف باختلاف الآحاد . وأكرمهم أقومهم بواجبه ، وأحسنهم عملا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

هم عند الله سواء وفى الشرع سواسية ، وفى القانون شَرَع ؛ ولكن هذه المساواة لا تحرّم أن يكون فى الناس قائد ومقود ، وسائد ومسود ، وخادم ومخدوم ، وآمر ومأمور . فإن ائتلاف الجماعة لا يكون إلا بهذا الاختلاف ، كآلات الساعة فيها الكبير والصغير والمستقيم والمنحنى والمستدير ، والدافع والمدفوع ، ولكنها تأتلف فى الحركة المؤدية إلى سيرها السير المقدر لها .

ينبغى أن يسوّى بين الناس فى الحقوق ، وأن يُيسّر لـكل بلوغُ ما هو ميسّر له . ولا ينبغى بعد هذا أن يستوىَ الناس ، بل ينبغى أن يستووا فى الاختـلاف الذى يقسم العمل بينهم ، ويسيّر النظام بهم .

إن خَيل الحَلْبة فيها السابق وفيها المصلى وما بعده . ولن يكون سباق إن جاءت الخيل كلها صفا واحداً ، ولـكن ينبغى أن يُيسّر لـكل فرس إمكان السبق ، وأن يقرّب لـكل فارس أمله فى الغلبة .

ينبغى أن يستوى الناس فيما يمكّنهم من الجهاد والـكفاح والسبق ، ثم يتركوا متسابقين ، سابقا ومسبوقا ، ومُنجحا ومُخفقا ، ثم ينظر إلى المخفق فيعان ليعاوده أمل الإنجاح ، ويكشف عنه الضر الذى يُعجزه عن السباق ، ويؤيسه من بلوغ الغاية .

وهكذا للناس مقامات يستوون فيها على اختلاف سجاياهم وكفاياتهم ، ومواضع يختلفون فيها على اتفاق سجاياهم ومواهبهم .

ونجاة الأمم وسعادتها فى البصر بأحوال الاستواء والامتياز ، وإدراك مواضع الاجتماع ومواضـع الافتراق ، حتى يكون سيدُ القوم خادمَهم حيناً ، وخادم القوم سيدهم حيناً .

وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون .

مواقيت العمل فى رمضان

سمعت الليلة موظفاً فى حكومة باكستان يشكو من ميقات العمل فى رمضان ، قدّمته الحكومة عن موعده صبحاً وأعفت الموظفين من العمل بعد الظهر .

وقال إن الناس يسهرون فى ليالى رمضان ، ويتسحرون . فهم أحوج إلى أن يؤخر لهم وقت العمل فى النهار لا أن يعجل . قلت : إن العمل فى دواوين مصر فى رمضان من ساعة عَشرٍ إلى ساعة اثنتين . قال : إنى حين لا أبلغ كفايتى من النوم لا أستطيع العمل . قلت : كلنا كذلك .

وقلت إن الحكومة السعودية تحسن بتوقيت العمل فى رمضان ليلا . فالناس يصلون التراويح ويذهبون إلى دواوينهم ، وقد برد الجو ، ونشط الفكر والجسم ، فيعمل واحدهم فى ساعة من الليل ما لا يقدر عليه فى ساعات من النهار ، وينصرفون إلى دورهم فيتسحرون ويصلون الصبح وينامون ما يشاءون ، ويستريحون نهارهم ليعملوا ليلهم . وعمل الصائم فى الحر شاق قليل الجدوى . وقلت أنا أسير بهذه السيرة فى خاصة نفسى ؛ لا أنام فى ليالى رمضان إلا أن أفتُر فاضطجع ساعة بين النائم .

واليقظان . وفى الليل ينفسح مجال القراءة والكتابة ، والذى يفوتنى من نوم الليل أقصتر به النهار . وليس كل الناس يستطيع هذا ، فمن استطاع ففعل فقد أحسن .

قال أحد الحاضرين : إن غير الصائم يشرع للصائمين أحيانا ، ولم يجرب ما يجربون . قال الشاكى : أحسب هذا حقيقة الأمر — فضحكنا .

وقلت فى نفسى : كم فى القوانين من شَرْع من لا يقاسى لمن يقاسى ، وحُكم من لم يجرّب فيمن جرّب . وقد قيل فى أمثالنا : الشبعان يفتّ للجائع فتًّا بطيئاً . وقيل : الذى على البرّ عوّام . وقيل : ليس من يده فى الماء كمن يده فى النار .

ثم طردت القياس فى أمور كثيرة لا يقدُرها إلا من مارسها ولا يحيط بها إلا من خبَرها . وكثيراً ما كذّب الإنسان وصدّق غيرَ مجرِّب . فلما حنكته التجارب صدّق ما كذّب من قبل ، وكذّب ما صدّق .

ونزع الفكر إلى أن يستطرد فى هذا المجال فقلت حسبك . خير الكلام ما قل ودل . ورُبّ لمحة دالّة . والسلام .

اخوّة ونظـام

نزلتُ لصلاة العشاء حين أذّن مؤذّن السفارة ، فوجدت الخدم حاضرين للصلاة . وكنت دعوتُهم إلى صلاة الجماعة أولَ من أمس ، وشغلَهم عنها أمسِ مأدبةٌ للإفطار تعبوا فيها ، ومنعَنا نحن الحرُّ من صلاة العشاء أولَ وقتها .

وقد انشرح صدرى لاستجابة الخدَم للدعوة ، وأنست بهم ، ورأيت معنى الأخوة الإسلامية جليًا فى هذا الجمع ، ونظرت إلى المصلين أتوسّمهم ، فوجدت آخر الصف إلى اليمين سلطانا هذا الشيخ الذى يعمل بين الحين والحين فى المضخة التى ترفع الماء إلى الطبقات العالية من دار السفارة ، وهو من المهاجرين . تراه إما عاملا فى رفع الماء ، أو حاملا حفيداً له توفى أبوه . ورأيت آخر الصف إلى اليسار كوثراً الكنّاس الذى يتعهد دار السفارة بالتنظيف كل صباح ومساء . وسرّنى أن رأيته مُعتمًا فى غير ثياب المهنة التى يعمل فيها .

وصلينا العشاء صفّين ، ونحن ثمانية غير الإمام ، فقلت نحن أقل من أن نصطف صفين ، والحديقة واسعة . فقمنا للتراويح

صفا واحداً . وكان كلّ واحد حريصاً على تقويم الصف اتباعاً للسنّة . منهم من يقول بالعربيــة : سَوُّوا الصف . ومنهم من يقول بالأردية : سيد ها كرو . ويعجبنى النظام فى كل شىء . وصــلاتنا مظهر نظام تامّ فى ركعاتها وأجزاء الركعات ونحواتها ، وصفُّها نظام مجسّم .

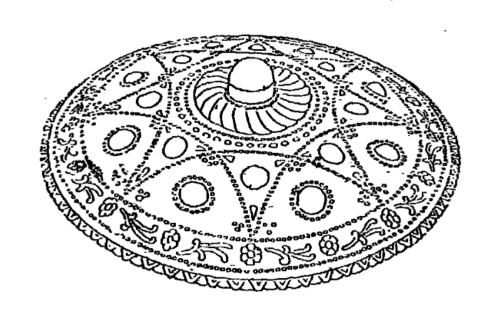
وجاوزت هذا الظاهر الجميل المتناسق إلى ما هو أعظم ، إلى التناسق الباطن فى الفــكر والروح ، والخلوص من الصور المختلفة ، والجزئيات المتعددة ، إلى المعنى الذى لا يَحُدّه زمان ولا مكان ، ولا يختلف فيه فــكر ولا قلب ، اتصالِ هذه الأرواح بالله الواحد ، وانتظامها بالقوانين الشاملة المتنزلة من الله الواحد ، لينظم الصورَ المتفرقة معنى واحد ، وتجمع الوجهات المختلفة وجهــةٌ واحدة . وقل ما استطعت فى هذا المجــال ، وأبِنْ عن معانيه ما اتسع لك الفــكر والمقال .

وقلت للمصلين قبل التراويح : « إن تراويحنا ثمانى ركعات لا عشرون ، يريد الله ليخفف عنكم » . وبعــد التراويح قلت بالأردية ، وأكثر المصلين لايعرفون العربية : انتهت التراويح ،

(٢)

نصلى الوتر . ودعانى الإمام لأؤم بهم فى الوتر ، فخطر لى أن المأمومين لعلهم يسرون بإمامتى ، ويرونها أدخل فى مشاركتهم . فصليت إماما . وقلت بعد الصلاة لتاج حارس السفارة : صلاتنا ليست طويلة . قال نعم .

وفارقتهم مسروراً مغتبطا ، وفى النفس معان يعجز عن الوفاء بها البيان .



ليلة الخميس ٨ رمضان — ١٤ حزيران

الناس فى قلق وخصام وتحارب

يقرأ الإنسان ويسمع، وما أكثر وسائل القراءة والسماع فى هذا الزمن — لشقاء الإنسان — يقرأ ويسمع عن خصام فى بلد بين أهله، وعن نزاع فى آخر بين أهله وباغ مسيطر عليه، وحرب بين فريقين فى بلد واحد اختلفت بينهما المذاهب أو المطامع، وحرب بين أمتين يثيرها خلاف يشتبه فيه الحق والباطل، أو يبطش فيه الباطل القوىّ بالحق الضعيف.

ومَردّ هذه الأحداث، ومرجع هذه المعارك، إلى الضلال والجور، الضلالِ عن الحق والعدل والجَور عنهما على علم.

يَضِلّ الفكر بإنسان فيدعو دعوة ضالة يُبعد بها الناس عن قَصْد السبيل، ويَمُدّها الدعاة بوَقودها من الأقوال المضلة، والأعمال المغوية، فتثور بها فتن عمياء تدع الحليم حيران. وكثيراً ما يكون العقل فى هذه الدعوات اسماً لمطامع خفية، ونزعات باطنة، يخفى أمرها حتى على أصحابها، فيحسبون أنهم يقضون بعقل ويحكمون على علم. وليسوا بالعقل والعلم يقضون. وما أخفى دبيب الأهواء والمطامع فى النفوس، وما أكثر ضلال الإنسان بها.

وتارة يكون الحق جليًّا والسبيلُ واضحة ، والحرام بيِّنًا والحلال بينا ؛ ولكن يجور عنها الناس لمآرب يبغونها من ثروة أو جاه أو سلطان أو شهوات أُخَر .

ودواء هذه الأدواء أن يعلِّمَ الناس طلبَ الحقّ والتثبت فيه ، والرضا بالعدل والسعى إليه ، وأن يُراضوا على أن يكون الحقُّ ، وإن حرمهم ما يبغون ، أحبَّ إليهم من الباطل ، وإن أظفرهم بما يبتغون ، وأن يكون العدل مطلبهم فى كل أمر — إليه تسكن نفوسهم ، وبه تطمئن قلوبهم .

فإن طلب الناس الحق وتثبتوا فى الطلب ، وإن بغَى الناسُ العدلَ ورضوا به ، ولم يَجُرْ بهم عن الحق والعدل مطمع أو هوى أو شهوة ، فأجْدِرِ بهم أن يفيئوا منهما إلى الألفة والتعاون والتعاضد ، وإلى الود والحب والإيثار ، وما إلى هذه الفضائل .

وليس كل النـاس مهيّأ لطلب الحق ووجدانه ، والرضا بالعدل وابتغائه ؛ ولكن أهل هذه الفضائل العقلاء العلماء الكرماء الذين عقلوا وعلموا وحبّب إليهم كرمُ نفوسهم كلَّ معنى كريم فى هذه الحياة . وعلى هؤلاء تبعة مَن وراءهم من أسودَة الأمم وجماهير الدهماء . وعليهم إثم كل خطة مُضلّة أو فعلة سيئة ، عليهم إثمها وإثم من عمل بها ، ولهم ثواب ما سَنّوا من

سُنن صالحة ، وساروا من سيرة راشدة وأشاعوا من كلمة طيبة .

فلينظر من أهّلَهم عقلهم وعلمهم لقيادة الناس والقيام على أمورهم ، وليقدروا آثار دعواتهم وأعمالهم فى الناس ، ويُبصروا ما عليهم من تبعات ، وليؤثروا الحق والعدل والخير حيثما كانوا وأيان كانوا . فإنما صلاح الدنيا وفسادها بهم . فإن تركوا الأمور سُدًى تولاها العامة ، وسيرها الجهلُ والهوى . وما أضيع أموراً تسيّرها أهواء العامة وجهالتهم .

« لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهُنّ عن المنكر أو ليُسَلّطَنّ الله عليكم شِراركم فيدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم » .



ليلة الجمعة ٩ رمضان — ١٥ حزيران

بين السعة والضيق

الإنسان له نفسه ، عليه تقويتها ، وتزكيتها وإنماء مواهبها ، واستخراج أحسن ما فى فطرتها ، وعليه وقايتها والدفع عنها فيما يعرض لها من غوائل حسية أو معنوية .

وله أسرته فعشيرته ، فمحلته فقريته ، فإقليمه فأمته ، فالبشر أجمعون . لكلٍّ صلات ووشائج ولها حقوقها عليه . وهو مكلّف أن يَرعى هذه الوشائج على تعددها ، ويُبقى عليها ويَقيها على سعتها أو ضيقها .

والعاقل من يؤلف بين هذه الأواصر ، ويلائم بين هذه الحقوق ، فلا تتخالف ولا تتعارض ، ولا تتصادم ، ولا يشغله بعضها عن بعض ، ولا تُخل واحدة منها بالأخرى . عليه أن يجعلها دوائر متوالية ، أصغرها حول المركز ، يليها الأكبر فالأكبر ، حتى الدائرة الكبرى المحيطة . وفى هذا التأليف المصلحةُ والسعادة والطمأنينة .

يجادل الإنسان عن نفسه ، ولا ضير عليه . بل ينبغى له أن يجادل عن نفسه بالحق ؛ ولكنه حين يتكلم فى أمور عشيرته

ينبغى أن ينتقل من دائرة النفس إلى دائرة العشيرة . وعليه أن يجادل عن عشيرته ويفخر بها ويشيد بمآثرها ؛ ولكنه حين يتحدث عن دائرة أوسع عنها ينبغى أن يترك العشيرة إلى الدائرة التى هى أوسع . فلا يذكر العشيرة إلا بقدر ما أدّت من خير إلى هذه الدائرة التى تحيط بها . وهكذا يجادل عن قومه ، ثم ينسى قومه حين يعرض لدائرة أوسع من الأقوام حتى ينتهى إلى الإنسانية العامة .

لو عقل الناس هذا لوضعوا الأمور مواضعها ، وعرفوا لكل مقام مقالَه ولكل عملٍ مجالَه .

رأيت من يشتركون فى مؤتمر إسلامى فيُشيدون بمآثر أقوامهم أكثر مما يُعنَون بالإسلام الذى اجتمعوا له . وكأنّ قصدهم الأول من المشاركة ، أن ينتهزوا فرصة للتحدث عن أقوامهم . وهذا غلط وخلط وجور .

وكذلك سمعت من يَحضُر جمعاً يدعو لأمر إنسانى شامل ، فيتحدث عن قومه ، ويجعل الكلام فى الأمر الإنسانى الشامل ذريعةً إلى الإبانة عن عصبيته والتبجح بأعمال قومه . وهذا غلط وخلط وجور .

إن صلاح البشر فى الاختلاف والاتفاق ، والتنافس

والتعاضد ، الاختلاف فى الدوائر الضيقة حتى توفق بينهم الدائرة الواسعة ، والتنافس فى الأقطار المختلفة حتى يجمعهم المحيط ؛ وهلم جرًّا . عليهم ألاّ يقطعوا الصلات الكبرى بالعصبيات الصغرى ، وألاّ يُضيّعوا الصلاتِ الصغرى فى الصلات الكبرى . وذلك أمر عُدّته عقل وفكر وعلم و بصر ورياضة وتربية ، حتى تُوزَن الأمور بأوزانها ، وتذرع المسافات بمقاييسها ، وتبقى الوِحدان والجماعات متعاطفة متواصلة متنافسة متعاونة .



ليلة السبت ١٠ رمضان — ١٦ حزيران

بين التكليف والحب

يطيع كثير من الناس أوامر الدين والقانون، قانون السلطان أو قانون الأخلاق، ويؤدون ما يكلفون لا يُرخّصون لأنفسهم في مخالفة. وإن خالفوا أسِفوا ووَدُّوا أنهم لم يخالفوا، ورجوا ألا يخالفوا من بعد.

كثير من الناس يفعل هذا ائتماراً ويقوم به امتثالا، ويراه عبثاً يحمله وتكليفاً يحتمله. وهؤلاء الصالحون لا تخالط قلوبَهم حلاوةُ الصلاح، ولا تُشرَب نفوسُهم لذاذةَ الخير، ولا تدرك سرائرهم جمال الحق والخير والعدل، ولا يُضيء في حناياهم نورُها، ولكنهم يفعلون الخير ويجتنبون الشر. ونِعْمَ هم أخياراً صالحين.

إنهم يتلقون أمراً من الشرع أو القانون أو العُرف أو الأخلاق فيطيعون.

وأعلى من هؤلاء منزلة، وأبلغ في الخير مكانة، وأعظم للحق إدراكا، مَن تخالط نفوسَهم حلاوةُ العمل الطيب، وتُغرَم بجمال الخير، وتُشرق بنور الحق. فهي تَهَشّ له، وتنزع إليه وترغب فيه وتراه نابعاً من سرائرها، ساطعاً من وجدانها. فهم

إنما يؤدون ما يؤدون حبا ، و يفعلون ما يفعلون لذة :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يلذ طعم العطاء

وترى الواحد من هؤلاء راغباً فى الخير ساكناً إليه ، راغباً عن الشر نافراً منه . كما يرغب الإنسان طبعاً فى الرائحة المعطرة ، والمنظر الجميل ، والطعم الحلو ، وكما ينفر من الرائحة الكريهة والمرأى القبيح والطعم المر .

وما تزال النفس تصفو بالجمال ، وتعلو بالحق ، حتى تكون قانونا فى الخير لا يصدر عنها غيره ، ومرآةً للجمال لا يرى فيها سواه ؛ وحتى تتصل نزَعاتها وخَلَجاتها بالخير والحق والعدل والجميل فتفنى فيه ، بل تفنى فى منشأ الخير والحق والجمال ، أى الله تعالى .

وتلكم منزلة الأبرار والمقربين ، ومَن أنعم الله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .



ليلة الأحد ١١ رمضان — ١٧ حزيران

من مزايا رمضان

يحبّب إلىّ رمضانَ أمور غير ما فيه من عبادة وفكر ورياضة :

منها أن فيه تغييراً فى عيشنا الراتب المطّرد على نسَق واحد . فنحن أكثر شعوراً به ، وتنبها له بما فيه من خصائص وبما يُحدث فى عيشنا من تغيير . ومن أجل هذا نوقّت به السنة ، أكثر من الشهور الأخرى . نعرف به ما مضى منها وما بقى ، وندرك به سرعة الزمان وتوالى السنين . وبهذا الشعور والتنبه يقدّر زمن رمضان ويعدّ فى عمر الإنسان أكثر من غيره ، إن كان تقدير الأوقات بما فيها من أعمال متميزة مقدرة ذات خطر .

ومما يحبّب رمضان إلىّ أن ساعاته مقوّمة كذلك . فالإنسان فى انتظار غروبه وارتقاب صبحه . وما أحسب الناس يهتمون برأى الشمس والقمر ويرقبونهما كما يرقبونهما فى رمضان كل يوم .

ويتصل بهذا أن الإنسان فى رمضان شاعر بما يمضى وما يأتى من أوقاته ، راج آمل كل حين ، يرجو مواقيت

الإفطار ، ويرجو مواقيت الصـــلاة ، ويرجو انتهاء رمضان إن شق عليــه ، أو رغب فى تغيير عيشته . وما أعظم أثر الرجاء فى الحياة !

ثم الناس لا يشهدون السحر والفجر إلا قليلا . وفى رمضان يوفون أوقات اليوم كلها ، ويستوفون ساعاته جميعها .

ومنها أن مواعيد الطعام فيه محكمة لا تقديم فيها ولا تأخير ، فيها دُربة على إحكام المواعيد لمن يحتاجون إلى التدرب عليها .

ومنها ما اعتاد الناس فى رمضان من عادات فى أطعمتهم وزياراتهم . وقد ذكرت هذا فى إحدى الليالى المـاضية .

وأما صومه وصلاته وصدقاته ورياضته النفس والجسم فيه ، فللحديث فيها غير هذه الـكلمة .



ليلة الاثنين ١٢ رمضان — ١٨ حزيران

أحاديث

دعينا إلى الإفطار فى دار زاهد حسين رئيس بنك الدولة الباكستانى ، ولقيت هناك جماعة ممن أعرف ، وآخرين ممن اتصلت بينى و بينهم المودة . وأفطرنا على شراب وفاكهة وقهوة . والإفطار هنا وجبة خفيفة منفصلة عن العشاء . و بعد صلاة المغرب جلسنا نتحدث نحو عشرين دقيقة ، ثم قمنا إلى المائدة . تحدثنا قبل المائدة و بعدها أحاديث شتّى ، أظهرها الحديث عن عيسى عليه السلام أمات أم لم يمت . بدأ خليق الزمان رئيس الرابطة الإسلامية فى باكستان قبلا ، الحديث فى هذا الشأن ، على ذِكر الكلام عن الشيعة وأهل السنّة ، وكنت مهدت لحديثه هذا بالتعجب ، ممّا ينشر فى الصحف أيام رمضان عن وقت الإفطار والإمساك كما تبينهما جمعية علماء باكستان وكما تبينهما هيئة علماء الشيعة الإمامية (وقد ذكرت هذا فى ذكريات الليالى الماضية) .

تكلم خليق الزمان فى حديث المهدى عند الشيعة وحياة المسيح وانتظار رجوعه عند عامة المسلمين . واتفق حديثنا على أن المسيح مات وأن فى القرآن ما يدل على موته ، إن كان الموت فى

حاجة إلى دليل ، وليس فى القرآن ما يدل على حياته . وكنا نتحدث بالإنكليزية ، وكان بجانبي السيد عبد الحميد الخطيب وزير المملكة السعودية فسأل عن الحديث فقال : إن عيسى لم يمت وتكلم فى هذا . وله تفسير أجزاء من القرآن بيّن فيه رأيه . وحال الإفطار دون المضى فى الحديث . ورحم الله الشاعر محمد عاكف كان يقول إذا أفضنا فى حديث فدعينا إلى طعام : جاء الحق وزهق الباطل .

* * *

فلما جلسنا بعد الإفطار عاد خليق الزمان يتحدث عن عيسى وقد انصرف السيد الخطيب فقلت له : خلا المجلس من المعارضة ! فضحك وقال : إن تعرّفنا الرأى الآن وأخذنا الأصوات كان الإجماع على موت عيسى .

وجاء محمد أسد ، وهو رجل فاضل نمسوى أسلم منذ خمس وعشرين سنة واسعُ المعرفة بالإسلام ، فتولى الحديث وقال : العجب من بعض علماء المسلمين يتركون الواضح من آيات القرآن إلى روايات إسرائيلية ونصرانية ، ويدعون المحكم من الآيات إلى المتشابهات . وأراد أن يتلو الآية فتلوتها : « هو الذى أنزل عليكَ الكتابَ منه آيات محكمات — الآية » . وقال إنى

أسلمت بنظرى وعقلى ، أنا وهابى فى الإسـلام ، وأستمسك بالنصوص لا أحيد ، إلا روايات لا تثبت على النقد .

واستطرد إلى الكلام فى القاديانية وذكر أنه نزل ضيفاً فى دار زعيمهم وهو ابن صاحب المذهب غلام أحمد ، وجادله فى داره تسع ساعات من نهار وساعات من ليل . ومن لطائفه فى هذا أن مجادله قال له إنّ القرآن قال : ومبشّراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . فهذا غلام أحمد القاديانى . قال أسد : ولـكن القرآن لم يقل غلام أحمد . قال : أحمد ، وغلام أحمد سواء . قال أسد : هذا كقولك الله وعبد الله سواء . . وساق الحديث فى القاديانة وشاركناه فيـه . وسقنا الحديث بين الجد والفكاهة إلى أن انتهى المجلس .

قال ضاحكا : لو أن ابراهام لنكولن مثلا ادّعى النبوّة لكان فى أعماله العظيمة شبهة ، ولـكن دعوى من لا ينصر العقل دعواه ، ولا تزكيه أفعاله عجيبة . والعجب من أصحـاب عقول وذكاء يصدقون هذا وأمثاله . قلت الهوى والرياسة والتقليد والغفلة وما إلى هؤلاء .



ليلة الثلاثاء ١٣ رمضان — ١٩ حزيران

فى خزانة كتب

أفطرت اليوم فى دار حكيم اسمه محمد سعيد . والحكيم فى لغة مسلمى الهند ، هو المتطبّب على الطريقة القديمة ، الطب الذى أخذه العرب عن اليونان . ويسمى فى الهند الطب اليونانى وله مدارس خاصة وأطباء على حدة . وقد اتفق الحكماء أخيراً على تسميته الطب الإسلامى .

وكنت رأيت بعض مدارس هذا الطب فى دهلى حينما ذهبت إليها سنة ١٩٤٧ قبل انقسام الهند ، وقيام دولة باكستان . ورأيت أن تُرسل كلية الطب من جامعة فؤاد جماعة ليتعرفوا هذا الطب ويعرفوا فرق ما بينه وبين الطب الحديث . وأحسب معظم الفرق فى الآلات والكهرباء وما يتصل بها . فأما الطب الباطنى الذى يصف الدواء للعلل الباطنة ، على اختلاف الأمزجة . فلا يفضُل الطب الحديثُ فيه الطبَّ القديم .

وفى الهند طب آخر على الطريقة الهندية القديمة . وهو أيضاً جدير بأن يعرف وينظر ما بينه وبين الطبّين الآخرين من تباعد وتقارب .

وبعد الإفطار دُعيت إلى خزانة كتب الحكيم فإذا حجرتان فيهما كتب عربية وفارسية وأردية وأوربية صُنّفت على موضوعاتها . ورأيت عناوينَ الأصناف كلّها عربية مثلا : التاريخ والتذكرة (وكتب التذكرة هي كتب التراجم ، وبهذا تعرف في العربية وما يتصل بها من اللغات الإسلامية) ورأيت في قسم التاريخ ترجمة الطبري وابن الأثير باللغة الأردية . ورأيت صفّا من الكتب كُتب عليه « غالبيّات » وآخر كتب عليه « إقباليات » فعرفت أنها كتب متصلة بالشاعر أسد الله غالب ، ومرشدنا الشاعر الفيلسوف محمد إقبال . قلت للحكيم : أرسل إليك ترجمة ديوان إقبال المسمى رسالة المشرق لتضعها بين الإقباليات ؟ قال : هي عندي . وناولني إياها فكتبت عليها إهداء . وقد رأيت في جانبٍ مخطوطاتٍ قديمة نظرت فيها فإذا مثنوى جلال الدين ، وديوان حافظ الشيرازى . وسألت عن كتاب القانون لابن سينا ، وهو عمدة عند الحكماء منذ ألف سنة ، وكان كذلك في أوربا إلى القرن السابع عشر الميلادى أو بعده ، فقدّم إليّ الحكيم نسخة مكتوبة منه .

* * *

هذه الخزانة تمثل الثقافة الإسلامية واتصال بعضها ببعض

(٣)

فى أقطار الإســلام . وتبين ما عملت العربية فى هذا الاتصال . ثقافةٌ محكمة وصلت الأمم الإسلامية ولا تزال تصلها على ماحاولت الأحداث والجهالةُ قطعَ ما بين المسلمين ، وعلى ما فعلت العصبية القومية وحمية الجاهلية .

ولقيتُ — خارجا من المـكتبة — الأستاذ عمر داود پوتا ، وهو أستاذ للعربية والثقافة الإســلامية فى السند . قلت : ضمّ خزانتك إلى هـذه . قال : شتّان ما بينهما — خزانتى فى اللغة والأدب والتاريخ ، وخزانته فى الطب . قلت هى فى الطب والأدب والتاريخ وغيرها .

وقلت للحكيم : خزانتك تقتضينا عودة بعد رمضان إن شاء الله ، وشكرت وانصرفت .

زَيديّ وإماميّ في التراويح

أذّن مؤذّن السفارة للعشاء فنزلت للصلاة فلقيت زائرين كريمين أحدهما زيدى من فضلاء اليمن كان له مشاركة فى حكومة ابن الوزير التى دامت أياما فى صنعاء ثم غلب عليها الإمام أحمد. وما زال الشيخ مغتربا مذ تلك الأيام، وهو يقيم اليوم فى كراجى. والآخر من لكهنَو هاجر إلى باكستان، وهو من الشيعة الإمامية.

سلّمت على الشيخين، وقد تهيأ الإمام للصلاة فسارا معى فصلينا العشاء والتراويح ثمانى ركعات — وأنا أصليها ثمانىَ، وكذلك يصليها أهل المغرب، وكذلك أثر عن الرسول صلوات الله عليه وسلامه. وقد اتفق الصحابة على عشرين ركعة فى عهد عمر رضى الله عنه.

سألت الضيفين بعد الصلاة: ما التراويح عندكما؟ فقالا: لا تراويح عندنا. فضحكت قائلا: لقد ظلمنا كما الليلة. قالا: صلينا نوافل لا نبالى أن تسمى تراويح أو لا. وتكلمنا فى مذهب الزيدية وقربه من مذهب أهل السنة. وقلت إن المسلمين جميعاً

يتفقون على الإسلام فينبغى ألا يبالوا بالاختلاف فى زوائده بعد أن اجتمعوا على قواعده ، وقلت إن الجهالة تُحكم العصبية والنفور بين المسلمين ، والعلم والفكر يرفعان العصبيات من بينهم . كان الحنفية والشافعية والحنابلة فى العراق يختلفون ويحتربون أحياناً . ولا نحس اليوم خلافاً بين هذه المذاهب ، وكذلك يرجى أن يتقارب أهل السنّة والشيعة .

إننا لم نختلف فى صف الصلاة ، ولم تباليا أنتما أن تقفا مع أهل السنّة فى التراويح ، وما كان هذا ليجوز عند آخرين ليس لهما مثل عقلكما وعلمكما . وقلت ضاحكا : وهذا الإمام الذى يصلى بنا يمنى صنعانىّ عاش فى الشام . ولا أدرى لعله على مذهب الزيدية ، وما خطر لى أن أسأله ما مذهبه ، بعد أن عرفته مسلماً .

إن الخلاف بين المسلمين يزول بالعلم والفكر ، ويستحكم بالجهل والغفلة . وعسى أن يرتفع المسلمون بأنفسهم عن هذه الجهالات ، وينجوا بها من هذا العار . إن الإسلام دين توحيد وأخوّة ، فإن اختلف المسلمون فقد خالفوا الإسلام فى قواعده ، ولم يقبل منهم فى هذا عذر ، ولا يُجدى عليهم بعده عمل .

وذكرت فى نفسى هذه الفكاهة فضحكت وسكت : يقال

إن تاجراً من مسلمى الهند أهل السنَّة كان فى طهران فسمع مكدّيا يقول : الآن وقد أسلمنا لا يعيننا أحد (حالا كه مسلمان شديم كسى مارا كمكى نكند) ، قال التاجر فرثيت له وتقدمت إليه فأعطيته . ثم بدا لى فسألته : ما كان دينك قبل أن تسلم ؟ قال : كنت سنّيا .



ليلة الخميس ١٥ رمضان — ٢١ حزيران

نفط إيران

ليالى رمضان روحيـة ، يلائمها الفـكر والذكر والعبادة والرياضة ، لا الحديث فى النفط والنزاع والجدال فيه ؛ ولـكن كثر الكلام فى نفط إيران ، ووصله بالإسلام بعض علماء إيران ، وأيدهم مؤتمر العالم الإسـلامى وسماحة مفتى فلسطين فى حديث أذيع عنه الليلة سمعته فى إذاعة باكستان .

والأمر يتصل بالإسلام من جهتين : الأولى العدل ، والإسلام يأمر به فى كل شىء . ومن العدل أن ينال أهل إيران نصيبا من ثمرات النفط يكافئ حقهم فيه بما نبع فى أرضهم .

والجهة الثانية دعوة الإسـلام المسلمين إلى أن يكون لهم الكلمة العليا فى بلادهم ، بل فى الأرض كلها ليحكموا بالعـدل ويسيروا بالنصَـفة بين الناس ، ويحسنوا على هـذه الأرض ما استطاعوا .

وبهذه الصلة بين النزاع على النفط والإسـلام انفسحت له ليالى رمضان قليلا .

ونحن — المسلمين — نبغى لإيران الخير ، وندعو إلى أن تنال

نصيبا موفوراً من نفطها وأر باحه . ولكنى آخذ على الإيرانيين أمرين :

الأول هذا الإفراط فى العصبية ، والجموح فى الثورة ، واستحلال بعضهم القتل ، ومسارعتهم إلى اتهام إخوانهم ، فقد قتل هؤلاء المفرطون رئيس حكومتهم ، وليس الاغتيال فى شرعة الإسلام ولا فى خُلُق المسلم .

ولما تولى أمر الحكومة مصدّق ، وهو زعيم المطالبين بالاستيلاء على النفط ، لم يركن إليه هؤلاء الجامحون ، ولم يثقوا به ولم يدَعوا الأمر له ولأعوانه يدبّرونه بالحكمة ، ويأخذون لبلادهم ما طلبوه من قبل ، بل سارعوا إلى اتهامه ، وعملوا لقتله ، حتى ألجئوه إلى دار مجلس النواب يقيم بها خيفة على نفسه .

ولا أرى هذا التهور بعيداً من تضليل الشيوعيين وتحريضهم ووسوستهم وإغرائهم وسائر وسائلهم

ولا تصلح الأمور إذا سيّرها العامة ، وقضى فيها الدهماء من الصائحين فى الطرق والأسواق . وليس هؤلاء الصائحون بأوسع عقلا ، ولا أسدّ رأياً ، ولا أحبّ لبلادهم ، من إخوانهم الذين تولوا الأمور .

والثانى — وهو متصل بالأول — أن الحكومة الإيرانية

ووراءها الجمهور أو أمامها ، تغلو فيما تتطلب ، وتعطل آبار النفط ، وتضيع الفرصة ؛ والحزم أن يأخذوا اليوم ويعملوا للغد ، ويملأوا الشركة بالعمال والخبراء منهم ، حتى يستعدوا للاستئثار بخيرات أرضهم . وقد رضى البريطانيون بجعل النفط للأمة الإيرانية ، أى بالتأميم ، ودعوا إلى التفاوض على هـذا رجاء الاتفاق على ما فيه مصلحة للفريقين . فمضى الإيرانيون ينذرون ويؤجلون لمطالبهم الآجال القريبة . وكان جديراً بهم أن يأخذوا أكثر ما يستطيعون أخذه ، ويستعينوا بالشركة على توفير الخير لهم من هذا النفط . لست أدرى ، وإنى لأخشى أن يفقد الإيرانيون بغلوهم هذا كثيراً مما يستطيعون أن ينالوه بالحكمة والتؤدة . والله أعلم بما يخفيه القدر فى غيبه .

ليلة الجمعة ١٦ رمضان — ٢٢ حزيران

كلٌّ يسبّح

القرآن الكريم يذكر سجود العالم كله وتسبيحه جميعه. كرر هذا فى آيات، و بيّنه فى أساليب مختلفات. وسميت بضع سور منه التسابيح لأنها مفتتحة، بسبَّح لله أو يسبِّح لله ما فى السموات وما فى الأرض. كل شىء فى العالم منقاد لقانون الله الذى سنّه له وخصّه به، عامل لا يحيد عنه ولا يَفتُرولا يضلّ ولا يكلّ. فالعالم كله تسبيح منظوم، أو قصيدة مسبّحة.

ما أعرف غير القرآن العظيم كتاباً يردد هذا التسبيح، و يبين عن هذا التقديس. وكم كتب الصوفية وأطنبوا. وكل ما كتبوا فيض من هذا النبع، وكل ما قالوا قبَس من هذا النور، وكل ما بينوا إسهاب فى هذا الإيجاز، ودوران حول هذا الإعجاز.

كل شىء يسبِّح وكل شىء يصلّى «كلٌّ قد عرَف صلاته وتسبيحه» فاستقام على طريقته ومضى إلى غايتــه، ذاكراً لا ينسى، مسبّحاً لا يفتر.

« ألم تر أن الله يسبِّح له من فى السموات والأرض والطير

صافّات ، كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » .

« تسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، و إن من شيء إلا يسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً » .

والإنسان ذو العقل المفكر ، والقلب الذا كر ، يسبِّح الله ويسجد له ؛ منه من عرف فسجد طوعاً ، ومنه من جهل فسجد كرهاً فهو منقاد فى باطنه و إن عصى فى ظاهره ، وهو ساجد بفطرته و إن أبى السجود برأيه .

« ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » . استمع التسبيح فى دور الأفلاك ، وسير الكواكب ، وحركة النجوم ، وفى هبوب الرياح ، وسير السحاب ، وهطول المطر ، واطّراد الأنهار ، وموج البحار ، واهتزاز النبات ، وحفيف الشجر ، وفى كل صوت وحركة من دابة فى الأرض أو طائر فى السماء أو حيوان فى الماء ، سواء فى هذا ملائكة السموات والدواب من البشَر والعجماوات .

« ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » .

الإنسان هذا الثائر الحائر ، والساكن المهتدى ، يسبِّح

فى نورته وسكونه ، وحيرته واهتدائه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الإنسان عامل فى هذا العالم ، أو عابد فى هذا المعبد ، مختلف إدراكه ومتفاوت تسبيحه ، الجاهل والعالم ، والمحسن والمسيء ، والغوىّ والرشيد . وهو كذلك متفاوت فى إدراك ما فى هذا العالم من تسبيح . وعلمه وصلاحه على قدر إدراكه ما فى هذا العالم من سر ، واستماعه إلى ما فيه من تقديس . من الناس من يرى العالم أصم أبكم لا يسمع فيه إلا أنفاسه هو ، وأقواله ، وهواجس نفسه ، وحَدَمة ضغائنه . ومنهم من يسمع العالم كله تسبيحاً ، ويبصره كله صلاة ، فيصلّى جهده مع المصلّين ، ويسبّح ما استطاع مع المسبّحين ، منصتاً كل حين إلى صوت ، مطّلعاً كل يوم على سر ، قائلا عاملا ، صالحا مصلحاً ، راقياً فى درجات الكمال إلى غير نهاية .



موقعة بدر

يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، فى بدر ، التقى جمعان ، أحدهما المسلمون يؤمهم رسولهم محمد صلوات الله عليه وسلامه ، والثانى قريش ومن ناصرها من العرب .

الأولون دُعاة دين يدعو إلى التوحيد وأخوّة البشر ، ويشرع للناس فى الفضائل شرعة بيّنة ، ويبيّن لهم فى مكارم الأخلاق محجة لاحبة ؛ والآخرون ورثة الشرك ، الدافعون عما ورثوا من عقائد ، وألِفوا من رذائل ، وتعوّدوا من مآثم .

ومن يُنعم النظر لا ير فى بدر المسلمين وقريشاً ، بل يرى التوحيد والشرك يلتقيان ، والأخوّة والعصبية ، والفضيلة والرذيلة . من يُنعم النظر يرَ هذه العصابة المسلمة وحدها ، فى عالم مظلم بشركه ، ضال بأوثانه ، غارق فى آثامه ، ويرَ العالم كله والأمم جميعها تحادّ هذه العصابة وتُشاقّها وتقاتلها . فليست قريش وحدها تقاتل المسلمين ، بل ينصرها من جاورها من العرب ، ويؤيدها كل من عرف ما بينها وبين محمد وأصحابه ، وينصرها مَن لم يعرف

الإسلام والخصومة بينه وبين قريش لو عرف . ولو عرفت أمم الأرض كلها الخصام بين الإسلام وخصومه ، والقتال بين التوحيد وأعدائه ، لنصرَت قلوبُهم وألسنتُهم قريشاً على المسلمين . ولو استمدتْهم قريش على الفئة الباغية الخارجة على دين آبائها والأديان كلها ، وعرفوا جلية الأمر بين محمد وأصحابه ، وقريش وألفافها ، لأمدوا المشركين وقاتلوا معهم المسلمين .

فالجمعان اللذان التقيا فى بدر ، هما فى الحق الفئة المسلمة القليلة وسائر البشر ، الجماعة الصغيرة الناصرة الإسلام والأمم كلها ، محمد وأصحابه وسائر أهل الأرض ، ثلاثمائة من المسلمين وكل العرب والعجم أهل بدر من المسلمين يقاتلون أهل الأرض كلها .

هذا حق . يستطيع المفكّر أن يتخيل هذه الجماعة القليلة لُمعة بيضاء فى سواد الأمم يحيطها الأعداء من كل جانب ، الأعداء الذين يعرفونها والذين لا يعرفون ، الأعداء المتنبهون لها والغافلون .

يستطيع أن يتخيل أمم الأرض كلها ، المشركين وأشباه المشركين من الأمم التى تدّعى التوحيد ، يتخيل هؤلاء جميعاً وراء قريش جماعة بعد جماعة إلى أقصى الأرض .

وفى هذا خطَرَ المعركة وقَدْرها وأثَرُها فى تاريخ العالم .

لم يكن الأمر قتالا بين جماعة من العرب وجماعة ، ولا بين المسلمين ومشركى قريش ، بل بين التوحيــد يحمله هذا العدد القليل ، والشرك يعم ظلامُه سواد الشعوب . دعوة جديدة تجــادل عن نفسها الأمم ، وحق صغير يدفع عن نفسه الباطل العَمَم ، وتاريخ ينبثق نوراً فى تلك الظُّلَمَ .

محمد نبيّ التوحيــد يتحدى كل أمة فى المشارق والمغارب . وإن كنت فى ريب من هذا فانظر كيف امتد النزاع من بعده ، إلى العرب كلهم ، ثم إلى الفرس والروم ، ثم إلى سائر بقاع الأرض . لقد كانت بدر معركة بين الإسلام والأديان كلها ، و بين المسلمين والبشر أجمعين . ولو هزم المسلمون فى بدر لهزمت الإسلام قريش طليعةُ جيوش الأرض ، وقضت عليه فى مهده . عرف هــذا رسول الله و بيّنه حين قال : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبدْ فى الأرض بعد اليوم .

بدر ومعالم تاريخنا

ذهبت إلى بدر فرأيت موضع الواقعة التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة بين المسلمين والمشركين ، ورأيت مدفن شهداء بدر ، وأُرِيت مكانا قيل إنه القليب الذي أُلقيت فيه قتلى المشركين . ورأيت مسجداً على صخرة هناك بُني مكانَ العريشِ الذي قام فيه الرسول حين المعركة. وازدحمت في رأسي الذكر . وذكرت إهمالنا هذا المشهد التاريخي ، وتفريطنا في تصوير الوقعة وتبيينها في مكانها وعلى الخرائط .

وذهبت إلى أُحُد مرات ، فرأيت مكان الوقعة وقعة أُحُد في السنة الثالثة من الهجرة ، ومدفن الشهداء ، وقبر حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير . وقيل إن قبر حمزة كان في مجرى السيل هناك فرُفع عن الوادي . ولم أر ما يحدّ موضعَ الوقعة ، ويبيّن مواضع الجيشين المتقاتلين . وذكرت أننا لم نُعن بتصوير هذه الغزوة في مكانها وعلى الخرائط .

وكذلك مررت بوادي حنين مرات ولم أتبين مكان وقعة حنين ، والأودية لم تتغير ، والجبال لم تنتقل ، ويسيرٌ علينا تحديد

المكان . وزرت الطائف وذكرت أننا لم نهتم بتحديد معالم غزوة الطائف ومسير الرسول إليها ورجوعه عنها . وهو بيّن فى الكتب يَسيرٌ بيانه على الأرض . وكذلك غزوة الحديبية وغيرها .

إن من اليسير أن يذهب جماعةٌ من المؤرخين والجغرافيين ، والمهندسين لتبيّن حدود هذه المواضع ، ووضع أنصاب تدل عليها ورسم خرائط وافية بها ، لتيسّر الدرس لزائرى هذه الأمكنة ، ولدارس التاريخ الإسلامى بعيداً منها .

وقُلْ فى آثار الرسول صلوات الله عليه والصحابة فى المدينة وفى مكة وما حولها .

نحن لا نعنى بهذه الآثار تقديساً وتبركا ، ولكن نعنى بها ذكراً لتاريخنا وتبيناً له ، وإيحاء لعظمته وعظته إلى زائرى هذه البقاع .

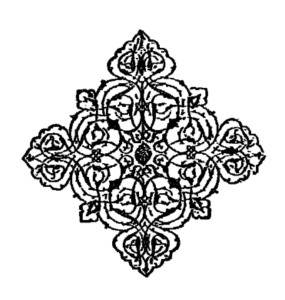
إن دار خديجة فى مكة — وهى الدار التى أوحى فيها معظم القرآن — لم تلق حقها من العناية . ورحم الله مَن بنى فى موضعها مدرسة لحفظها من الضياع . ومولد الرسول فى مكة دار هدمت وبقيت عرصتها موطئاً للناس والدواب . وقد سمعنا أخيراً أنه ستبنى فيها خزانة كتب ، وكنت اقترحت هذا مرات[1]

---

(١) بنيت بها دار كتب كبيرة وشهدت العمل فى بنائها فى يناير سنة ١٩٥٢ .

ودار الأرقم لا تزال معروفة مشيّدة ولكنها لا تلقى ما تستحق من عناية . وكنت سعيت فى أن تشيدها وزارة الأوقاف المصرية ولعلها فاعلة .

وقصارى القول أنه ينبغى لنا تتبع معالم تاريخنا ، والعناية بها ، بيانا وحفظا وتشييدا ودرسا ، إن كنا أهلا لوراثة هذا التاريخ ، وكنّا نرى هذا التاريخ أهلا للرعاية والحفظ .



(٤)

ليلة الاثنين ١٩ رمضان — ٢٥ حزيران

الزمان

مضى ثلثا رمضان ، ولا أدرى كيف مضيا ، إلا كما أدرى كيف يمضى الزمان سريعا نشعر به أو لا نشعر ، لا حيلة لنا فيه وليس لنا من الأمر شيء . وإن الساعات لتجرى بنا ، منها فارغ من العمل ، ومنها ما يحوى قليلا منه ، ومنها ما يفهق به . ومن هذه الأعمال محامد ، ومنها مذامّ ، منها خير ومنها شر . والسعيد من لا تمر ساعاته فارغة ، ولا منقوصة ، ومن لا تحمل ساعاته إلا الكلمة الطيبة ، والفعلة الخيرة ، والنية الحسنة ، جهد طاقته ، من تمر ساعاته به كما تمر الريح على الروض المطار ، ترى خضرة ونَضرة وزهرا ونورا ، وتحمل شذى عاطرا ونفحا طيبا .

وأسعد من هذا من لا يمر به زمان ولا يفوته وقت ، ولا يعدّ زمانه نهرا جاريا ، أو ريحا ماضية ، أو سلكا ممدودا ، بل هو زمانه اجتمع لديه ماضيه وحاضره ومستقبله . فهو لا يقول : مضى وليتنى ، ولا أتى فأغتنم الفرصة ، ولا سيأتى فأرتقب . بل هو نفسه وقته وفرصته . وهو لا يغيّره زمان ولا يحدّه مكان . إن عدا الناس بالزمان أو عدا الزمان بهم ، أو فاتهم الزمان فعدوا خلفه ، فهو لا يعدو مع الزمان ولا وراءه ؛ ولكنه مفكر عازم

فاعل كل حين ، لا يتردد ولا يقف ، ولا يتخلّف كلُّ الأوقات ظروف لأعماله ؛ بل أعماله هى الأوقات . هو لا يعتلّ بحكم الزمان ، ولا يعتذر بضرورة الوقت ، ولا يعذّر بفوات الفرصة ، بل هو من نفسه و إيمانه وثقته بالله وعزمه ، فى فرصة دائمة لا تفوت ، ووقت فسيح لا يمرّ ، وعمل دائم لا ينقطع .

يعمل ما يَهدى إليه عقله وقلبه ، ولا يقيس عمله بربح أو خسارة ، ونفع أو ضر ، ورضا أو سخط ، فعمله كالقوانين العامة فى هذا الكون لا تفوتها فرصة ، ولا تنتظر مواتاة فرصة .

هو متصل بالله تعالى ، والله لا أول له ولا آخر ولا زمان ولا مكان ولا ماض ولا آت .

فاملأوا أوقاتكم عملا ، واجهدوا فى إحسان العمل ما استطعتم ولا تدعوها تمر فارغة . أترعوها بالخير والصلاح ما قدرتم .

اعملوا وقاربوا لعل بارقة من اليقين تلوح ، وعلّ معنى من الخلود يواتى ، فتنطلقوا من قيود الزمان والمكان ، وتكونوا كقوانين الله فى خلقه ، دائمة شاملة تملأ الأزمنة والأمكنة .

واعلموا أن فى الإنسان حقائق مستترة ، ومواهب خافية ، يراها مستحيلة من لا يُعنَى بنفسه فيثير خباياها ويُنير خفاياها ، ويراها يقينا من طلبها فتجلت له فعرفها فأيقن بها .

ليلة الثلاثاء ٢٠ رمضان — ٢٦ حزيران

الغيــــلة

في مثل هذه الليلة من سنة أربعين من الهجرة ، قتل على رضى الله عنه ، في مسجد الكوفة ، وهو يتأهب للصلاة . وكان القاتل يحسب أنه بقتل على يتقرب إلى الله . وكذلك قال عمران ابن حطان :

يا ضربةً من تقيّ ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

وكذلك يطوّع الجهل والهوى لكثير من الأشرار قتل الأخيار . يُقدم الجاهل الشرير فيغتال العالم الخيّر، يتوهم أنه يفعل الخير . « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» واحسرتا لا يستطيع حكماء الأرض ولو اجتمعوا أن يصلحوا ما أفسد الجاهل . أو يَرأبوا ما صدع ، أو يتداركوا ما فات . وكم اغتال الأشرار الأخيار في قديم الزمان وحديثه . وإن صادفت الغيلة مرة من يستحق القتل . فكم قتلت من يستحق أن يُفدى بألوف من البشر . وهي شر وإن أصابت شريرا ، بأنها إقدام على القتل بغير روية وتثبت ، وقتل ممن لا يملك القضاء بالقتل . يحسب جاهل أن

فلانا يستحق القتل فيحكم بقتله دون أن يسأله ماذا فعل ولماذا فعل ، ويُمضى حكمه غير مفكر فيما يقترف ، وفيما يجرّ عمله من شر وفساد ، وفيما يصيب من أسرة وعشيرة وجماعة وأمة .

إن فى التاريخ كثيرا من هذه المصائب ؛ ولكن الناس لا يعتبرون ، والأشرار لا يرعَوُون . ترى فى عصرنا هذا شابا جاهلا مأفون الرأى ، يبدو له فيُقدم على قتل مَن لو فُدى بآلاف من مثله لم يَصلحوا فداء له . ثم يطلب حقه فى الدفاع عن نفسه ، ويستنجد المحامين ، ويُفسَح له فى الكلام والوقت ليقول ما يستطيع ، ويقولَ المدافعون عنه ما يواتيهم به العقل والعلم والجدل ، ثم لا يؤتمن قاض واحد على الحكم عليه وقد أخِذ ويَدُه تقطر من دم فريسته ، وأحاطت به البيّنة من كل جانب . فيجتمع قضاة يتعاونون على النظر وتسديد الرأى و إصابة الحق . ويرى القاتل كل هذا حقا له ليدفع عن نفسه . فهلّا رأى أن من حقّ من فَتك به أن يَدفع عن نفسه كذلك . إن هذه الطريقة السوءى تُغرى مثل ابن مُلجَم بالفتك بمثل علىّ ، وكفى .

إن الغيلة ليست من الإسلام ، فقد حرّم الإسلام الدماء وصانها ، واحتاط لها . وإنها لأعزّ على الله من أن يجعلها عرضة للأهواء والأضغان والنزوات والوساوس .

وليست الغيلة مروءة . فإن ذا المروءة لا يُقدم على قتال قرنه إلا ظاهرا وقرنه متأهب قد أعدّ من السلاح والعُدد جهده . وليست الغيلة من العقل . وحسبها ما تجنيه على الجماعة من فتنة وفساد كبير ، وما تلده من قتل أو هرْج ومرْج ، وما فيها من ظلم وعدوان .

وليست الغيلة من مصلحة الواحد أو الجماعة فى شىء . إنها ترويع الجماعة وسلبُها حريتها وأمنها ، و إذاعة الفتنة فيها . إنها تحكيم الأغرار فى الحياة .

أذكر الآن كثيرا من الكبراء فى ماضى الزمان وحاضره اغتالهم صغار ، وعرف العقلاء حين الاغتيال فظاعة الجريمة وشناعة العواقب ، ثم تبين الجهلاء من بَعد ما تبيّنه العقلاء فى الحين .

إن الاغتيال أن يُسلَب الإنسان حقَّه فى الحياة ، وحقَّه فى أن يدفع عن نفسه بيده أو لسانه . فأى إنسان يملك هذا ؟ إنه الظلم والعدوان والإفساد يستخف به السخفاء ويدرى شناعته وفظاعته وشره الحكماء .

ليلة الأربعاء ٢١ رمضان — ٢٧ حزيران

أثر الرجل العظيم فى أمته

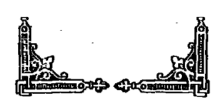
حدثنى أديب فاضل من أهل باكستان ، ونحن نقرأ فى ديوان إقبال المسمّى ضرب كليم ، أصيلَ اليوم ، قال : كنا فى ظلام وغمّ . لا يرى المسلمون لهم مخرجا من الكُرَب المحيطة ، والدواهى المحدقة . ننظر فنرى أننا ضائعون إن بقينا فى سواد الحنادك ، وننظر فنرى ألّا مناص لنا من البقاء فى هذا السواد ، نرى أنفسنا قلّةً وفقراً وجهلا وعجزاً فيغلب علينا اليأس أو يكاد .

وقال محدثى : إنكم لا تفهمون ما نفهم من كلام هذا الشاعر لأنكم لا تعلمون كيف كنا ذلك الحين . ونحن نفهم صريح كلامه وكنايته وندرك ظاهره وباطنه — كنا كما وصفت لك وكان هذا الشاعر يُبصر الفجر فى هذه الظُّلَم ، ويدعو ألّا نيأس ، ويصيح فى الناس مبينا مبصّراً ، يزيل الغشاوة عن أعينهم ، وينفى اليأس عن قلوبهم ، ويَقدح كلامَه ناراً ونوراً ، ويسيِّره فيهم دعاء إلى الغاية ، وحُداء إليها ، حتى ملأنا أملا وعزما ، فإذا نحن ما ترى اليوم .

قلت : هذا عمل العظماء فى الأمم . إنهم يُبدّلونها تبديلا ، أو يخلقونها خلقاً . يَهدونها و يبصرونها بما يعلّمون و يبينون ، و يأمرون و ينهون . وأعظَمُ من الهداية والتبصير والتعليم والتبيين أن ينفخوا فى النفوس روحا ، و يُشعلوا فيها طموحا ، و يملئوها نورا ونارا ، و يَحفزوها فتُقدم ، و يحدوا لها فتنطلق . أعظم من التعليم والتبيين تغييرُ النفوس فى بواطنها ، و إحياؤها وتنبيهها وحفزها إلى المعالى ، وترغيبها فى جلائل الأعمال ، وتنفيرها من الدنايا ، و إنارة الأمل فى حناياها ، و إضرام العزم فى خفاياها . بهذا يبنون الأمم أو يخلقون . إنهم يغيّرون النفوس ، ولا تصلح الأمم إلا بهذا التغيير . وما أصدق قول القرآن : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ليس يسيراً أن يكون الإنسان عظيما يفعل فى أمته هـذه الأفعال . وليس هيّناً أثرُ العظيم فى أمته عقولها وقلوبها وأخلاقها وما أعظم قدوة العظماء إصلاحا فى النفوس ، أو إنارة للطريق ، وما أجلّ أن يكون لكل أمة عظيمٌ تجعله مثلها العالى وأسوتها الحسنة ، و يحاول كل واحد فيها أن يتمثل به قولا وعملا .

كان إقبال يدعو إلى باكستان فيُحسب قولُه هذيان محموم أو خُدعة خيال ، أو كما قال بعض الناس ، حلم مجنون ؛ ولكن إقبالا العظيم بثّ فى النفوس تصديق هذا الهذيان ، والإيمان بهذا الخيال ، واعتقاد هذا الحلم ، فإذا الهذيان حكمة بالغة ، و إذا الخيال حقيقة رائعة ، و إذا الحلم يقظة باهرة . وها هى ذى باكستان التى خلقها الخيال وأيّدتها الحقائق . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب .



ليلة الخميس ٢٢ رمضان — ٢٨ حزيران

حديث عجيب

جمعني مجلس في دار سفارتنا بجماعة من ممثلي البلاد العربية ومعهم رجل نمسوي أسلم وفقه الإسلام وتاريخه وثقافته ، فتحدثنا في اللغة العربية وأوزان الشعر . وذكرنا الخليل بن أحمد ، وسار الحديث شجونه حتى ذكرو ليم بول واضع المعجم العربي الإنكليزي ولين بول المؤرخ . قال الرجل الذي أسلم : إن هذا المستشرق كان يُعجَب بالإسلام وأثّر في نفسه ما رأى في بلاد المسلمين ، ومما أثر في نفسه كثيرا الأذان .

قال وزير شرقي الأردن : وأنتَ ما الذي أثّر في نفسك فرغبت في الإسلام . قال أُعْجِبت بالعرب حين خالطتهم ، فرأيت استقامتهم في الكلام ، وقصدهم إلى ما يرون دون حَيد . قلت لا أقطع حديثك : تكلم ربيعةُ الرأي يوما فأعجِب بنفسه ، فالتفت إلى أعرابي بجانبه . فسأله : ما تعدّون البلاغة فيكم ؟ قال حذف الفُضول وإصابة المعنى . قال فما العِي ؟ قال ما كنت فيه منذ اليوم .

ومضى الرجل فقال : فلما عُنيت بالعرب والإسلام أعجبت

أيما إعجاب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا سبب إسلامى .

وقال قلت يوما للشيخ عبد الله بن بليهد العالم النجدى المعروف : إنى آمنت برسول الله قبل أن أومن بالله . ففكر قليلا ثم قال صدقت . لا يُسلم الناس إلّا من هذا الطريق . قلت أنا حين عجب الحاضرون من هذا القول : تأويل هذا أن الرجل أعجب بالنبي فسار معه فارتقى به إلى الله تعالى . وقال أحد الحاضرين : نعم قد أتى الأمر من بابه ؟ وانفض المجلس

وعدت إلى التفكير فى الأمر سائلا كيف يؤمن بأن محمدا رسول الله قبل أن يؤمن بالله . وأجبت أنه رأى إنسانا لا كالناس وجّهه إلى الحقائق ، وأزال عن بصره وقلبه الغشاوة فآمن بأن الرجل مُلهم واهتدى به إلى الله . ثم قلت ينبغى أن يكون قد آمن بالله فآمن بأن محمدا رسوله . وقبل أن أمضى فى التأويل والتفسير قلت أرجع إلى الرجل فأسأله .

سألته فقال : كنت لا أومن بالله ولا بالرسل . فلما قرأت سيرة الرسول رأيت فى كلامه ما لا يصدر عن نفسه ولا عن البشر . وعرفت أنه آت بما هو فوق محمد والبشر كلهم .

وقال الرجل : كنت أسيرا فى ألمانيا فأجد على الوجوه كآبة ،

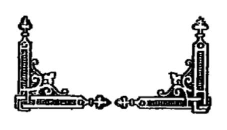
وأرى الناس فى رخاء وغَناء ، ولـكنهم أشقياء . وقلت مرة لزوجي — وكانت تسايرنى — فقالت : ولـكنهم لا يشعرون بهذا الشقاء . قال وفتحتُ المصحف وكنت سافرت إلى بلاد المسلمين وفـكرت فيهم وفى دينهم فإذا السورة : ألهاكم التـكاثر حتى زرتم المقابر . قلت هذا ما نحن فيه . الناس فى تـكاثر وفى عناء . وكانت هذه إلى أمور سابقة ، هادية لى إلى الإسلام .



ليلة الجمعة ٢٣ رمضان — أول تموز

ليلة مُخلفة

قلت ماذا أكتب الليلة ، ولم يكن بى نشاط للكتابة وإقبال عليها . فشرعت أفكر ماذا أكتب ؟ ثم قلت إنى أهشّ للفكرة تهبط علىّ إلهاما ، أو يُهديها إلىّ التفكير فيما أرى من أمور الناس أو أسمع من أخبارهم ، فأما أن أفتّش عن كلام أكتبه ، وألزم نفس الكتابة على كره ، فهذا عين التكلف ، فوضعت القلم ولا أدرى أأعود إلى الكتابة ليلتى أم أكتفى بهذا العجز .



ليلة السبت ٢٤ رمضان — ٢ تموز

جُمعة الوَداع

دُعيت إلى صلاة الجمعة فى جامع اسمه مَسجد خضرا . وهو مسجد جديد صغير جميل . ذهبت والساعة واحدة وربع ، وصلاة الجمعة تقام فى كراجى حوالى ساعةِ اثنتين ، ووقت كراجى الاصطلاحى مقدم على وقتها الحقيقى بنحو ساعة[1] . رأيت على الطريق جنودا فذكرت أن الحاكم العام دعى إلى الصلاة فى هذا الجامع ، صلاة جمعة الوداع ، آخر جمعة فى رمضان — كذلك تسمى فى باكستان —

وبلغت باب المسجد فإذا صفوف المصلّين متلاحقة حتى العتبة ، وإذا بعض الناس قيام لا يجدون مكانا . فتلطفت أتخطى الصفوف ، أسير حينا ، وأنتظر حينا حتى يفرغ مصلّ من صلاته ، وأنبّه مَن فى طريقى قائما أو قاعدا بلمسة خفيفة . فيفسح لى . وأدركت أن الناس عرفوا من زيى أنى سفير مصر أو قريب منه . وكان قصدى أن أصعد دَرَجا هناك إلى السقيفة الممتدة أمام المصلى ، فلمّا صَعِدت الدرج أشار إلىّ أحد القائمين أن تَقَدَّم .

---

(١) عدل التوقيت فى باكستان إلى الوقت الطبيعى .

فتقدمت فولجت باب المصلى خجلا من تخطى الصفوف . فإذا رجل قائم ، حَزَرتُ أنه إمام المسجد أو أحد القُوّام بأمره ، يشير إلىّ أن تَقدّمْ إلى الصف الأول . فتقدمت . وأشار إلى موضع قرب المحراب قائلا أدع لك مكانى . وحضر بعدى السيد عبد الحميد الخطيب وزير المملكة السعودية . وبعد قليل صعد الإمام على المنبر . والمنابر فى باكستان والهند دَرَج قليل من الحجر أو الرخام لا سياج عليه — قرأ الخطيب بالعربية ثم قرأ بالأردية فجلس فقام يدعو بالعربية وحدها ، ودعا لحاكم باكستان ورئيس الوزارة والحكومة . وأقيمت الصلاة . وصُليت أربع ركعات بعد الجمعة على مذهب أبى حنيفة ، وهو مذهب أهل باكستان ، والناس هنا حريصون على سنن الجمعة القَبْلية والبَعدية . والتفتُّ إلى يسارى فإذا رئيس الوزراء لياقت على خان يُكثر الصلاة فى سمت وخشوع . وقام الإمام يدعو بالأردية لباكستان وديار الإسلام عامة . ولما هم المصلون بالانصراف نظرت فإذا الحاج ناظم الدين الحاكم العام على يمين رئيس الوزراء ورأيت وزراء آخرين وحاكم السند ، وممثلَى سيلان وأندونسيا . ولم أر ممثلى البلاد العربية الأخرى ولا ممثلى تركيا وإيران ، وقد دُعوا كلهم إلى الصلاة فى هذا المسجد .

وأشار إلىّ وزير الداخلية شهاب الدين لأسير مع الحاكم العام خَشية الزحام . فقلت أتريّث قليلا حتى تخرج جمهرة المصلين ، وبعد قليل جاء صاحب لى من إقليم الحدود فكلمنى وأشار إلىّ بالتقدم فسرت . وكلّم الناسَ فأفسحوا طريقا . وأقبل مَن فى طريقى يسلمون علىّ حريصين على التسليم صغارهم وكبارهم . ومازلت أصافح الناس على الجانبين حتى هبطت الدرَج . ووقفت حتى يؤتى بالحذاء . وأشار صاحبي إلى المصلين أن يقفوا حتى أخرج . فلما نهيته قال يسرّهم أن يتريثوا إلى أن تخرج .

وكنت صليتُ الجمعة فى لاهور فرأيت حرص المصلّين على السلام علىّ ، وحزَرت أنها محبة الناس فى باكستان لإخوانهم المسلمين وتعظيم العرب منهم خاصة .

وقد راقنى ما رأيت من قلة التكلف فى استقبال الحاكم العام ورئيس الوزراء ، ووداعةِ المصلين حين تخطيت صفوفهم ، ومسارعتهم إلى إفساح طريقى ، وأناتهم عند الخروج ، ووقوفهم طويلا ريثما أخرج . انصرفت وملء عينى وقلبي ما شهدت فى هذا الجامع الصغير بل العالم الكبير .



ليلة الأحد ٢٥ رمضان — ٣ تموز

صلاة التراويح فى كراجى

حرصت على أن أشهد صلاة التراويح فى مصلًّى عام. وأهلُ باكستان، فيما رأيت، يحتفلون بالتراويح، ويجتمعون لها فى المساجد وفى الحدائق. وقد التمستُ فرصةً لشهود التراويح، فتوالت الليالى وأنا أُرجيْ هذه الرغبة قانعاً بالصلاة فى السفارة مجتزئاً بثمانى ركعات، وتارة أشغل عن هذه وتلك.

ولما دخلنا فى ثلث رمضان الأخير أشفقتُ أن تفوت الفرصة. فقلت لصاحب يمانى فاضل: سنفطر معاً عند فلان يوم الخميس. فنخرج من داره إلى الصلاة فى إرم باغ (حديقة إرم) وغلبنا الكسل وشَغَلنا الحديث، فقلت له: نتقابل غداً ونذهب إلى إرم باغ.

وذهبت فإذا الحديقة مُضاءة، وفى جانب منها فُرُش والناس فى انتظار الصلاة. قلنا نبسط بساطنا فى آخر الصفوف ليتسنى لنا الانصراف حين نشاء. فلما أقيمت الصلاة وانتظمت الصفوف

(٥)

انفصلنا عن الجماعة ، فنقلنا بساطنا وراء الصف الأخير وأقيمت الصلاة .

وكان فى الصف الأخير فُرجة أمامنا على طول بساطنا ، الناس لا يسدّونها ، ونحن لا نرغب فى نقل بساطنا مرة أخرى ونؤثر البعد عن الصف التماساً للهواء ، ولكن الناس ينظرون إلى هذه الفرجة . ونحن نشير إلى من نرى عن يميننا وشمالنا بسد الفرجة فلا نجد من يسدها . وصلينا ثمانى ركعات من التراويح . والإمام يطيل القراءة ليقرأ جزءاً من القرآن كل ليلة ليختم القرآن فى الشهر . ونظرت إلى صاحبي اليمانى ، وهو زيدى لا يصلى التراويح ، وقد صلّاها معى فى السفارة وقال : نافلة من الصلاة لها ثوابها . وانتظرت رأيه فى إكمال العشرين فنظر مستفهما . وأخذَنا التكبير فقمنا . وقلت نصلى اثنتى عشرة . وقيّض الله من سدّ الفرجة أمامنا فاسترحنا إلى مقامنا على بساطنا وصلينا اثنتى عشرة . ونظر كل منّا إلى صاحبه ولم نتكلم وقمنا مع المصلين . فلما سلّمنا كان الباقى ست ركعات فنشطنا لها ولم نستحسن التخلف عن الجماعة ، وجال فى نفسى بيت أبى الطيب ورحم الله أبا الطيب :

ولم أر فى عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

وبعد الصلاة قلت : استدرجْنا أخانا اليمانى حتى صلى عشرين . قال : وما يدريك لعلى استدرجتك . وعرفنا فى أوائل الصلاة أن جماعة أخرى خلفنا وسمعنا قراءتها وتكبيرها . ولم ندر لماذا انقسم الناس جماعتين فى مكان واحد . ولعلهم فعلوا هذا لتمكين الناس من أداء الصلاة على اختلاف الأوقات .

وكذلك سمعنا على بعد صوتا يقول : صلاة الوتر . فحسبته من الجماعة التى خلفنا ، ولكنى سمعت سلام هذه الجماعة عقب هذا الصوت ، فعرفت أن الوتر من جماعة ثالثة فى مكان آخر . ولكن عندها مجهراً يرسل صوتها بعيدا .

أنست بالصلاة وأعجبت بإقبال القوم على التراويح وخشوعهم فيها وصبرهم عليها .

وأعجبنى كذلك أن المصلَّيات وكثيراً من المساجد تقوم عليه جماعات متطوعة . ليس لها أئمة مرتبون من قبل الحكومة ، ولا تمدهم الحكومة بالمال إلا قليلا .

وللقوم بمصر بتأليف الجماعات ورغبة فيها ينظمون بها كثيراً من أمورهم .

ولهم رغبة فى المجامع العامة يعقدونها فى أعياد المسلمين ، وحين يحتاج بلد إسلامى إلى النصرة فى أمر يحزُبه .

رضى الله عنهم ويسر لهم كل خير .

ليلة الاثنين ٢٦ رمضان — ٤ تموز ١٩٥١

من ديوان محمد إقبال

قرأت اليوم وقت الأصيل فى ديوان باللغة الأردية للشاعر الفيلسوف محمد إقبال رحمه الله ، اسمه ضرب كليم ، وقد ملك نفسى مما قرأت بيتان عنوانهما الصلاة .

ومعناهما أن الإنسان شابَ ولكن اللات ومناة لا تزالان فى فَتاء تبدلان كل زمان ثوبا .

هذه السجدة التى تثقل على نفسك هى التى نجت الإنسان من آلاف السجدات(١) .

الله أكبر الله أكبر ، إن للإنسان كل حين أصناما من الأمراء والكبراء والأغنياء . وله كل وقته أوثان من المطامع والأهواء ، والهوى إلاهٌ مُسلط ، والمطمع صنم معبود . أذل الحرصُ أعناق الرجال .

---

(١) ترجمت البيتين من بعد فى الديوان فى هذين البيتين :

تلون فى كل ثوب مناة　　وشاب بنو الدهر وهى فتاة
فهذا السجود الذى تجتويه　　به من ألوف السجود نجاة

فالإنسان لا يخلو من صنم يتوجه إليه ، و إن حسب أنه موحّد . ولا يبرأ من وثن يسجد له وإن ظن أنه برىء من عبادة الأوثان .

تأمل فى الأقوياء قبل الضعفاء ، والأغنياء قبل الفقراء ، والعظماء قبل الدهماء ، تجدهم حين تفضحهم عَينُ الحق عن دخائلهم ، وتُجلِّى زخارفهم عن سرائرهم ، عُبّاد أوثان لا تُعد ، وعبيد أهواء لا تُحَدّ ، هذا يطلب منصبا يكفر بكل حق ، وذاك يبغى جاها يتنكر فيه لكل فضيلة ، وذاك يكنز مالا يستحل له كل حرام . هؤلاء جميعا يعبدون هذه المطالب من دون الله . فهم يخالفون لها كل ما أمر به ، و يرتكبون فى سبيلها كل ما نهى عنه ، إلا المصلين الذين هم فى صلاتهم دائمون . الذين سجدت قلوبهم وأرواحهم ، قبل أن تسجد جباههم وأشباحهم . هؤلاء يوحدون الله فيكفرون بكل بهتان ، ويسجدون له فلا يسجدون لإنس ولا جان : فسجدتهم لله الواحد تمحو كل السجدات ، وترفع الجباه عن المذلات ، كعصا موسى تلقف ما يأفكون ، وتُبطل ما يُخيِّلون . هذه السجدة الواحدة لله الواحد نجت الإنسان من سجداتٍ لألوف من أصنام البشر أو أصنام الهوى

وكم حررت الإنسان من عبودية تتداوله فيها الأوقات ، وتتنازعه الحاجات .

لله هذا العبد الحر عبد الله ، الذى يرفع رأسه حين يسجد لربه عن أن يطأطئها لمخلوق ، أو يذلها لمطمع . إنها السجدة المنجية ، والعبادة المحرِّرة . و إنها جَمْعُ النفس فلا تتخطفها الشياطين ، و إكرامها عن المذلة بين العالمين .

رحم الله من فكر واعتبر ، ومن أوتى قلبا فذكر ، ورحم الله إقبالا . يرحمه الله .



سنة حسنة

دعانى (معين نوازجنك) أحد وزراء حيدر آباد الدكن قبلا إلى وليمة فى داره هذه الليلة ليلة سبع وعشرين من رمضان ليلة القدر. ونظرت فى بطاقة الدعوة فإذا فيها اسم ابن الداعى فحسبتها وليمة عرس. وكم شهدنا مثلها فى كراجي.

وذهبت بعد الإفطار، والإفطار عند أهل باكستان طعام وشراب قليل يعقبه بعد فترةٍ عشاء. وقد دعوتُ مرة إلى الإفطار فهمّ الضيوف بالخروج بعد أن تناولوا ما يتناوله الصائم فور الغروب من تَمْر وماء ونحوهما. فعرفتهم أنهم مدعوون إلى وجبة طعام أخرى. فقالوا: قد أفطرنا. وهذا عشاء. فكتبت بعدُ فى رقاع دعوانى كما يكتبون: «إفطار وعشاء».

وصعدنا إلى سطح الدار فإذا موائد وطيئة، يجلس الطاعمون حولها على الأرض، لا على كراسى. وهى مريحة استرحنا إليها وطال جلوسنا حولها. وجلس إلى يمينى صبىّ قدرت أنه من أهل الدار. وحدثته قليلا بالأردية. ورجعنا بعد الطعام إلى مجلسنا فى طبقة الدار السفلى. فدعيت أنا وقليل من الحضور إلى حجرة.

دخلت فإذا فى صدرها أريكة عليها سجّادة من حرير حمراء . وجاء الصبى الذى جالسنى على الطعام فجلس عليها وجاءت صبية فجلست بجانبه . ثم ألبس الصبى عقودَ الزهر . وقام فصافح الحاضرين وأشير إلينا فخرجنا إلى مجلسنا الأول .

عجبت إذ لم أر مراسم عرس ، ولم يطل بنا الجلوس . وعرّفنى أحد الحضور أن هذه الوليمة احتفال بصيام الصبى والصبية ، وأن من عادات أهل حيدر آباد أن يُولِمُوا لأولادهم ويحتفلوا بهم حينما يصومون أول مرة . فهذا الصبى وهذه الصبية صاما هذا الرمضان للمرة الأولى .

قلت سنّة حسنة تُشعر الصبيان أن شأن الصيام عظيم ، وأنه ينقلهم من الطفولة إلى طور التكليف واحتمال التبعات ، ويفصل بين عهدين فى أعمارهم . وأحسَب الصبى الذى يحتفل بصيامه يستحى أن يُفطر من بعد ، ويُكبِر نفسَه أن يَصغُر عن هذه المنزلة .

قال محدّثى : ثلاث حفلات لابد منها فى حياة الناس عندنا : الأولى حين يشرع الصبى فى التعلّم وقراءة القرآن فى سن الرابعة أو الخامسة . والثانية حفلة الصيام . والثالثة حفلة العرس .

قال ممثل سيلان — وكان حاضراً — : إننا نحتفل فى بلادنا بالختان كذلك . قلت وفى بلادنا حفـلات الختان تلى حفلات الزواج فى العناية والاهتمام .

إن من السنن المستحسنة أن يشعر الناشئون بأقدارهم كلما تقدمت بهم السن ، ورشّحتهم لاحتمال الأعباء ، ومواجهـة تكاليف الحياة . وحَسَنة هذه السنةُ ، سـنةُ الاحتفاء بالصبيان ، حين يصومون رمضان أول مرة .



ديوان ضرب كليم

قرأت فى ديوان ضرب كليم للشاعر العظيم محمد إقبال أبياتاً بالأردية ، هذه ترجمتها[1] :

« هذا الصبح الذى يسمّى حيناً اليوم ، وحيناً غداً
لا يُعلم من أين يتجلّى
ولـكن الصبح الذى يرتج له ليل العالم يتجلى من
أذان العبد المؤمن » .

يرى إقبال أن العبد المؤمن ، العبد الحر ، فى تقـدم دائم ، وتجديد مستمر ، وخَلق لا ينقطع ، وتجلّ لا ينتهى ، لا يقيّـده زمان ولا مكان ، ولا يَثبتُ له حِدثان . فإن قيّـدت العبدَ الأيامُ والليالى قيّـد هو الأيامَ والليالىَ . وإن تاه العبيد فى حوادث الدهر ، تاهت حوادث الدهر فى قلب المؤمن . همّتهُ مُشيرة على القضاء والقدر ، والعالم لعزمه مُسخّر . فالمؤمن يؤذّن فى ظلام العالم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقلهم

(١) ترجمته من بعد فى ديوان ضرب كليم كما ترى :

لم أدر مطلع ذلك الصبح الذى ... يدعى يوم أو غد فى الأزمن
لـكنما الصبح الذى زحفت له ... ظلم العوالم من أذان المؤمن

من الجهل إلى العلم ، ومن الشقاوة إلى السعادة . فأذانه أذان يوم جديد وعصر مُحْدَث .

هذا الصبح الذى يفتتح نهاراً بعد ليل ، فيكون اليومَ الحاضر ، ويُرتقب طلوعُه فيكون الغدَ المنتظر . هذا الصبح لا نبالى به ولا ندرى من أين يأتى ، إنما الصبح الصادق هو الصبح الذى يُضىء فى قلب المؤمن إيمانا ، ويدوّى به صوته أذانا ، فيرعَد له الظلام ، وتدول به الأيام . الصبحُ الذى هو تقدم الزمن ، ومُضىّ السنن . أذان المؤمن صيحة لا ترد ، وعزمة لا ترتد ، ويقين لا ينثنى ، وسَعْى لا ينقطع . هذا الأذان يلد الصبح الذى لا يثبت فيه ظلام ، ولا تقوى عليه حوادث الأيام . هذا الصبح الذى نعنيه ، ونتطلع إليه ، ونُصِيخ إلى أذانه . إنه وحى الله إيمانا فى القلوب ، وعزائم فى النفوس ، وجهاداً فى الأفكار والأيدى ، وإقداما فى الحياة ، فهو قانون الله الذى لا يرد ، وسنّته التى لا تتبدل .

أين المؤمن الذى يؤذّن ، وأين المؤمن الذى يصغى لترعَد منهما الظلمات ، ويبتسم لهما صبح الحادثات . أين أذان المؤمن الذى يلد الصبح الوضّاء ، ويُشيع فى النفوس حب الحق والخير ، ويسمو بها إلى العظائم ، ويعلو بها على الصغائر ، ويملأ الزمان نوراً وناراً ، والأرض مجداً وفخاراً .

ليلة الخميس ٢٩ رمضان — ٩ تموز

ليلة العيـــد

هذه ليلة العيد فى مصر وأقطار أخرى . وهى ليلة التاسع والعشرين فى باكستان وقد أتمت مصر عدة رمضان ثلاثين يوما . وأكبر الظن أن باكستان لا تزيد على تسعة وعشرين . فقد كان الهلال فيها أول ليلة من رمضان عالياً بعيدا عن الأفق ، ولبث أكثر من ساعة بعد المغرب . وبعيد أن يكون هذا هلالَ أول ليلة . كما يبعد أن تختلف مصر وباكستان فى ليلتين .

ويخطرلى الآن أنه إن جُمع ما قاله الشعراء والكتاب فى عيد الفطر ورمضان ، اجتمع لنا شعر ونثر كثير يبين عن احتفاء الناس بالصوم والعيد ، ويبين عن أخبار أخرى للشعراء والمهنئين بالصوم والإفطار ، والبلاد التى عاش فيها هؤلاء .

وكذلك يجتمع لنا مما قال الشعراء فى هلال العيد ، وما قال المُجّان فى الخلاص من رمضان والترحيب بشوال ينقذهم من تكاليف العبادة ، وسُخط هؤلاء على القضاة حين لا يحكمون بالإفطار ويلزمون الناس أن يتمّوا رمضان ثلاثين يوما كقول القائل :

أترى القاضى أعمى أم تراه قد تعامى

سرق العيد كأنّ العيـــد أموالُ اليتامى

وكذلك ما يقوله الشعراء حين يُعيّدون فى غير بلادهم بعيدين عن أهلهم وأحبابهم .

***

وإن جُمع ما قيل فى عيد الأضحى والحج كذلك ، يَجتمعْ لنا أدب وافر من أدب العيدين .

وإن جُمع إلى هذا وذاك ما قيل فى أعياد أخرى ، مما اعتادها المسلمون ، كالنيروز والمهرجان ، كان لنا من أدب الأعياد قصائد ورسائل فيها متعة وفيها بيان لكثير من التاريخ والعادات .

إنى لأذكر عيديّات فى قصائد البحترى والمتنبى ومهيار ، وكم فى شعر غيرهم من عيديات ، وكم فى نثر الكتاب من رسائل كتبت فى الأعياد

يحضرنى الآن قصيدة البحترى فى تهنئة المتوكل التى يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنّة الله الرضية تفطر

وقصيدة المتنبى :

لكل امرىء من دهره ما تعودا

وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

وقصيدته التى أنشأها حين خرج من مصر مغاضبا كافورا :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وقصيدته فى تهنئته ابن العميد بالنيروز :

جاء نيروزنا وأنت مرادهُ   وورتْ بالذى أردت زِناده

وإن أفسحت للخيال المَراد ، هام مع الشعراء فى كل واد

اللهم اجعله عيداً مباركا ، واجعله مرحلة من مراحل كثيرة نتقدم بها فى طريق الحياة إلى الخير والبر وللمعرفة والعمل الصالح .



رمضان سنة ١٣٧١ﻫ

بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة الاثنين أول رمضان ١٣٧١ (١) — ٢٦ أيار (مايو) ١٩٥٢

حديث النجوم

قد سمعنا من النجوم حديثا   وقرأنا سطور هذى النجوم :
أنّ سيل الزمان بالناس ماضٍ   جِريةَ النهر مُزبِدا بالهشيم
وسطورَ الأقوام تُمحى وتُنسى   بهزيم الرياح أو بالنسيم
ويخطّ الأطفالُ فوقَ رمالٍ   ثم تمحو الأمواج كلّ رقيم
غير أن الكريم يثبت فى الد   هر رُسوخ الأطواد غير مُليم
وبذورَ الخيرات تَنمو وتُجنى   ثم تَنمو على طريق قويم
فكن الحرّ لا تُزلزِل منه   عصفةُ الريح أو هوِىّ الرجوم
وافعل الخير جاهدا لا تبالى   «وتوكل على العزيز الرحيم[2]»

(١) توقيت باكستان .   (٢) من القرآن الكريم .

(٦)

ليلة الثلاثاء ٢ رمضان — ٢٧ أيار

النـــــاس

إنّ فى الناس كمخضرّ الشجَر   يَبسُط الظلّ ويُجنيك الثمَر
ومن الناس نَضير مُعجِب   وهو سَمّ فى مذاق كالعُشَر (١)
ومن الناس كسَرح شائك   فيه وخز ، ومَتاع للبشر
ومن الناس فُرات سائغ   ومن الناس أُجاج قد أمرّ

* * *

إنّما الحر زُلال سائغ   فإذا سيم هوانا فهو مرّ
وهو ذو ظل ظليل وجَنى   وبه الشوك لساعات الخطر
وهو لَيّنٌ هيّن فى صَحبه   وهو فى الهيجاء يَرمِى بالشرر



---

(١) شجر له ورق عريض ثخين دائم الخضرة ، تخرج منه عصارة بيضاء مرّة سامة وهو كثير فى الحجاز .

العبور والثبوت

النَّاسُ في رُعبٍ وفي حيرة
بما رأوا من عابرات الصُّور
فكلُّ كونٍ في النُّهى زائل
وكلُّ لونٍ حائلٌ في البصر
فلا خلودٌ أو ثباتٌ ، وهل
فَوقَ عُبابٍ مائجٍ مُستقَرّ ؟
وقد حواهم فَلَكٌ دائر
في الفلك الدائر هل من مَقَر؟
قد أبصروا من دَوَران الرحَى
وراعهم أن الدُّوار استمر
ما فكروا في قطبها ثابتاً
لولا ثبات قُطْبها لم تَدُر
القطب في نفسك فافطن له
من حولها قد دار هذا الدهَر
اثبُتْ على دور الرحى يا فتى
ولا يرُعْك الدهرَ كرّ وفرّ

ليلة الخميس ٤ رمضان — ٢٩ أيار

خَلوة

إنّ في خَلوة النفوس لأُنْسا
ليس كفئاً لخلوة كلُّ نفس
هي في ضَجة الأنام سكونٌ
يَسمع القلبُ عنده كلّ همس
وهْي في فرقة النفوس اجتماع
تُرهِف النفسُ عنده كلّ حِسّ
وهْي في فُسحة الخيال انطلاق
دون قيد من الجليس وحَبس
هي هَدْي العقول بعد ضلال
في خِداع من الحياة ولَبس
هي في ظُلمة الليالي ضياء
لا تراه النفوسُ في ضوء شمس
من يَضِق بالخلاء نفساً فإني
أجد الخلوة الطويلةَ أُنسي

الهلال

يا هلالا على الليالى تهادى وتوالى شروقه والغروب
كم رآك الورى هلالا وبدرا كم تهاداك مطلع ومغيب
أخلاء رحابك الفسيح أم تمشى م عليها قبائل وشعوب ؟
أهمو مثلنا ، شقاء وسعد فى الليالى وراحة ولغوب
أهمو مثلنا ، خصام وبغى وقتال وسالب وسليب ؟
أهمو مثلنا ، مضل وهاد وجهول وعالم وأديب ؟
أم همو يا هلال أعلم منا طالعتهم بسرهن الغيوب ؟
كل مسعى لهم لحق وخير كل ساع إلى أخيه حبيب ؟
لم يرد الهلال سؤلى وولى يتهادى وسره محجوب



ليلة السبت ٦ رمضان — ٣١ أيار

لا يتسع الوقت للخطب القصار (١)

سمعت بمحفلٍ خطبا طـــوالا
تصاب لهـــا المسامع بالسَّآم
فقلت : عجبت للخطباء تُزجي
فســـيحَ القول فى ضِيق المقام
فكم وقتٍ أضاعوا فى كلام
سخيفِ النَّسج منفرط النظام ؟
فقال محـــدثى : إنا سمعنا
عجيبَ القول عن أحـد العظام :
« يَضيــق الوقتُ عن خطب قِصار
فنهذى بالطويل من الـكلام »

(١) قصة هذه الابيات فى أحد المؤتمرات سنة ١٩٥١ .

ليلة الأحد ٧ رمضان — أول حزيران

حر مقيَّد وعبد مسيَّب

في الناس عبد قيده رهبة أو رغبة في هذه الفانيه
يعيش ، هِجِّيراهُ يا حسرتا لمنصبي يا حسرتا لماليه
يبيت موفوراً ولكنه مُرَزَّأٌ قد حُرم العافيه
مقيد إلا لدى نفسه قد أطلقته في الخنَى راضيه
يرتع في آثامه سائبا كما تَجُزّ الكلأ الماشيه

* * *

وفيهمُ حُرٌّ له هِمّة لكلّ قيدٍ في الورى آبيه
تعلو عن القيد به نفسه تَسْبَح في آفاقها العاليه
تراه من ذل الورى مطلقا مقيداً من نفسه الآبيه
أنعِمْ به حُرّا على قيده حُرّيةٌ لمن وعى غاليه

ليلة الاثنين ٨ رمضان — ٢ حزيران

المَسخ

قال لى صاحبي سمعت عجيباً من حديث عن الزمان القديم:
أن ناساً من الخنازير صاروا وقروداً تُرى بخَلق دميم
ما رأينا ولا رآه ثقاتٌ كيف ترضى العقول بالتسليم ؟

***

قلت : فاسمع ، هديتَ ، تأويلَ هذا
واسألنْ إن شككتَ كلَّ حكيم :
إن مَسْخ الطباع تأويل هـذا
لا تظنَّ المرادَ مسخَ الجسوم
أيما أمةٍ تحاكى سـواها
لا تبالى صَحيحَها من سـقيم
فاحسَبنْها من القرود قبيـلا
حاكياتٍ الفعال دون حُلوم
وإذا أمةٌ سعت فى الدنايا
وارتضت فى الفِعال كلَّ ذميم
فاحسبنْها من الخنازير ترعى
فى الخبيثاتِ كلَّ مرعًى وخيم

قافلة البشر

قيل : ليل مظلم . قلت : اذكُروا

في ظلام الليل إشراقَ الصباحْ

قيل : غَيْمٌ مُطبِق . قلت : انظروا

رُبَّ نجمٍ من وراء الغيم لاح

قيل : سهب طَمَست أعــــلامه

قلت : لـكن فيه آياتٌ صِحاح

قيل : لـكن برّح الســيرُ بنا

قلت : بَعد السير إجهادُ النجاح

قيل : والمنزل ما أعـــــــلامه ؟

قلت : في مَغْناه للفــار لِياح

قيل : فالمنزل أقصى ســيرنا ؟

قلت بل نُزُلٌ به السفر يُراح

قيل : فالتســـــيار ما غايته ؟

قلت : كلُّ الدهر سَير لا بَراح

ليلة الأربعاء ١٠ رمضان — ٤ حزيران

الله أكبر (١)

يُدوّي على الدهر صوتُ الأذان

فلا ينقضي ساعةً واحده

إذا بَلدةٌ أمسكت صوتها تنادى التي بعدها جاهده

فما سَكت الصوتُ مَرّ العُصور ولم تُلفَ نغمتُه هامده

تهز السماوات أنغامُه وتُلقى الجبالُ لها راعده

***

فكيف غفَتْ عنه هذى القلوبُ

وظلّت لترجيعه جاحده ؟

ولم تقشعرّ بأصدائه ولم تحفظ النغمة الشارده

كما أدركَ الصوتَ مذياعُه ودوّى بنغماته صاعده

أهذى القلوب بإحساسها أقلُّ من الآلة الجامده ؟

(١) مواقيت البلاد مختلفة متوالية من المشرق إلى المغرب فتختلف أوقات الأذان . ويسمع أذان دائم فى البلاد الإسلامية .

فجر الخميس ١١ رمضان — ٥ حزيران

الخيالة

رأيت في خَيالة بليلتي مَرائياً لبثتُ منها أعجب
حتى رأيت بينها ما راعني
وضاق عن فكرى هناك المذهب
رأيت إنساناً مَضى لَحيْنه يجيء فيا بيننا ويذهب
وناطقاً مسلِّماً محدِّثاً يَجدّ في كلامه ويَلعب
يا حيرتا لِما أرى ! ماذا أرى ؟ تبقى الظِلال والجُسُوم تَعطَب !
حقيقةٌ تَفنى ويَبقى بعدها خيالُها . في مثل هذا العجب
واللفظ باق ، والخطيب هالك أهالك أم في الحضور يخطب ؟
قد سيطر الإنسان في علومه على شكول وحروف تُكتب
وحبَس الألفاظَ بعد ناطق وثبّت الظلال ليس تهرب
ياليت شعرى هل ينالُ علمُه حقائقاً عن الورى تُحجَّب
فيدرك الأرواح في مَجالها ويلمس الحقائقَ المجرِّب
فهذه الأرواح أولى أن تُرى يا ربّ ! إنها إلينا أقربُ

فجر الجمعة ١٢ رمضان — ٦ حزيران

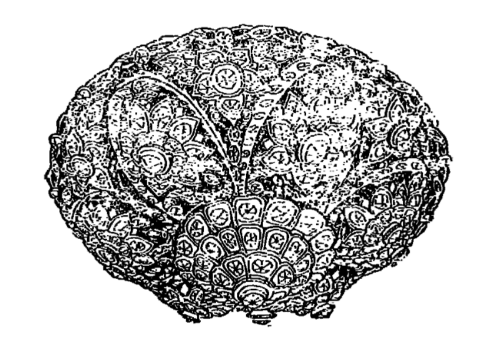
الاستكبار على إبليس

تكبّرتُ حين أريدَ الهَوان   وقيل : لآدم هيّا اسجدوا
أبيتُ السجود لطينٍ مَهين   ولكنّ صَحْبِيَ لم يَقعدوا
فأخرِجتُ من جنّة آبياً   ولم أرضَ عاراً بها يَخلُدُ
وفاض على الأرض منى الفســـاد ، أغير مع الشّر أو أنجِد
وأولاد آدمَ أغويتُهم   وناديتُ فى الأرض أن يُفسدوا
فلم ألق حرب القوى الشجاع   إلى قِرنهِ فى الوغى يصمِد
ولكن تهاووا هُوِىّ الفَراش   ولم يُلفَ بينهمُ أيّد

* * *

سوى عصبة حرت فى أمرها   وما كان لى بينَهم مُسعِد
أتيت إليهم بخَيلى ورَجلى   فلم يَرهبونى ولم يرْعَدوا
وجئتهمُ بخِداع المقالِ   ومكرِ الثعالب فاستأسدوا
وصُغتُ لهم من نُضار عُجولا   فلم يأبهوها ولم يَعْبــدوا

وشُمِتُهم شهواتِ الحياة فما ذلّتْهم وما عُبِّدوا
أدور لهم حول حصن حصين، من الدين والخُلق قد شَيّدوا
فمالى إلى سَاحِه مدخل ومالى إلى بُرجه مصعَد
ولم أر فى سُوره ثُلمةً تُمُدُّ إلى القوم منها يد
فأدبرت عن كيدهم خائباً أعَضّ البنان ولا أحسَد
جزانى أولئك كبرا بكبر أبيت السجود ولم يسجدوا



فجر السبت ١٣ رمضان — ٧ حزيران

غربان كراجى

قال لى صاحبٌ سئمت نعيباً كلَّ حين من هذه الغربان(١)
لا أذوق النهار نوْما فحولى ناعباتٌ تطير كالذِّبّان
سوّد الدوْحَ سِربُها فعليه نائحات تنوء بالقضبان
ما رأينا من قبْل دوحا عليهِ ثمراتُ الغربان فى الأغصان

* * *

قلت : يا صاح ! إنها خطَرات
خلتُها من وساوس الشيطان
ضِقْتَ ، كالناس ، من نعيب غراب
وحملتَ الهموم ملءَ الزمان
علّ هذا النعيب منها كلام
وحِوارٌ تُديره ، ذو معان
علّ هذا النعيب منها غِناء
ونشيدٌ مؤلّفُ الأوزان
علّها نغمةٌ إلى نغمات
صِيغَ منها قصائد الأكوان

(١) هذه الشكوى كانت من السيد عمر بهاء الأميرى فى كراجى .

فتأملْ نعيمَها من جـــديد
واحفظَ منها بمطرب الألحان
واذكرنى إذا طربتَ شَــكوراً
وألْقَ هذا الجهـــل بالعِرفان
حين بَدَّلتُ بالعُبوس ابتســاما
وغِنَـاء بنوحة الغـــربان



فجر الأحد ١٤ رمضان — ٨ حزيران

إلى هالة(١)

أهالةُ إن شَطَّ المَزار فإننى
إليك، على نَأى الديار قريب

حديثُكِ عندى والخيال يُطيف بى
له فى خيالى جَيئة وذُهوب

ولكننى ، والحق ، أشتاق قهوة
يَضوع شذاها ، من يديك تطيب

تَزُفّينها بعد الطعام ولا يُرى
لغيرك فيها شِرْكة ونصيب

وأشتاق من « شَيخ الأرانب » مجلسا
أُحدِّثُ فيه ، والخيال خصيب

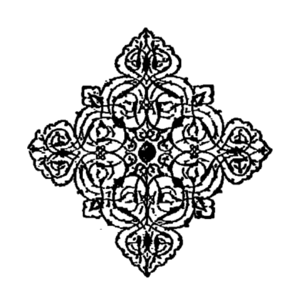
وخَطّك ما أمليه صنعةَ كاتب
وَرِضْكَك منه ، والحديث عجيب

وتصويرَ ما سطّرتِ تصويرَ حاذق
يزيد بيانى رَوعة ويُجيب

---

(١) بنت المؤلف . وكانت تحرص على تقديم القهوة بعد إفطار رمضان وتستأثر بها ، وكانت تستمع إلى أسمار منها قصة شيخ الأرانب ، وهى قصة طويلة بدئت فى جدة ، واستؤنفت فى كراجى ولم تنته . وكانت تكتب ماتسمع ثم تصور حوادثه .

لأذكرُ صَـفًّا للأرانب قائما
يُصلّى مُنيبًا ، مَن رآه يُنيبُ
يكاد من الإتقـان يُبصَر راكعًا
ويُسمَع منه للخشـوع وَجيب
وجمعًا دعاه للصــلاة مؤذّنٌ
وأحسنَ فيـه قارئٌ وخطيب
فليتك عندى كى أتمّ حديثها
فذلك تحــديثٌ إلىّ حبيب



(٧)

فجر الاثنين ١٥ رمضان — ٩ حزيران

ما فوق هـــذى الأنجم

قال الجليس ، وقــد أطال حواره :

يا صاحبى ما فوق هذى الأنجم ؟
قد هالنى منـــــه سؤال هائل
فأجبتُـــــه بتعجّب وتَبسّم :
يا صاح ! هذِى الزُهرُ هل أدركتَها
حتى تجوز إلى السؤال المُفحِمِ
يا صاح ! ما تحت النجوم ؟ أعالِمٌ
ما تحتها فى الكون أم لم تعلم ؟
يا صاح ! أرضُك هذه هل تعرفنْ
ما فى ضمير الأرض من مُستعجِم ؟
بل ما عليها ؟ هل أحطتَ بعلمه
فى البرّ أو فى قاع بحرٍ خِضرِمِ ؟
وجمــادَها ونباتَهــا والسرّ فى
حَيوانها ، من ناطق أو أعْجَم

أعرفتَ هـذا الأنسَ فى آحاده

وثُباتِه ، فى بؤسـه والأنعُمُ

بل ما بنفسك ؟ . هل عرفت خبيئَها

أو هـل أحطتَ بكل أمرٍ مُبهَم

* * *

ابدأ بنفسـك فاعرفَنْها جاهدا

والأرضَ فانفُذْها بفكرٍ مُقدم

واصعَد بعلمك طالباً مِن مُستوًى

مـ فوقه ، كالمرتقى فى سُـلّم

فإذا بلغتَ النجمَ فى أفلاكه

فهناك فاسأل : ما وراء الأنجم ؟



فجر الثلاثاء ١٦ رمضان — ٩ حزيران

لست طروبا

قال لى اللائمون: لستَ طَروبا — لك حقًا إلى الصخور انتماء
كم تُثير الأوتارُ لحنا فلحنا — ويُهزّ الأوتارَ فينا غِناء
ونرى الناس هائجين، ولكن — أنت فى الموج صخرة صمّاء

***

وعلى البحر، والعشيُّ صَموتٌ — غيرَ لحنٍ تُثيره الدأْماء
قد طربنا ولم يهزّ فؤادا — فيك نور ولم يُثِرْك الماء
كم رأينا الجمال قَيدَ عيون — لك عنه، برغمنا، إغضاء
تدّعى الشعرَ والفؤاد جَماد — كيف تَرضى بذلك الشعراء
إن تكن شاعراً فأمر عجيب — أنت فى الشعر عندنا إقواء

***

حسبُك الله. قد بلغتَ ملاما — وحماك الصوابَ هذا الهُراء[1]
طرَبُ الطفل وثبةٌ وصياح — ومن الشيخ بَسمة خرساء
ومن الغُصْن فى الرياح اهتزاز — ومن الطَود عزّة قعساء
ضاق قلب عن الجمال فأفشى — فإذا كلُّ سرّه أصداء
رُبّ قلب وعى الجمال ولكن — عَزّ فيه لسره إفشاء
رُبّ قلب حوى العوالمَ طراً — تصغُر الأرض عنده والسماء

---

(١) هذا البيت وما بعده جواب اللائمين .

فجر الأربعاء ١٧ رمضان — ١١ حزيران

نبع فى فلاة[1]

رأيت بقفرةٍ نبعاً ثَريّا يَشقّ الصخرَ فى سفح الجبالِ
وقامت حوله دَوح عظام تُجير من الهجيرة كلَّ صال
تمرّ به القوافل وهى عطشى فتحيا بالمياه وبالظلال
وتطهر للصلاة به وتمضى وقد نَشِطت به بعد الكَلال
وتهفو الطيرُ ظامئةً إليه فيُطفىء نارَها صفوُ الزلال
وقام لديه بستان نضير من الأزهار والثمرات حال

* * *

أقول لصاحبىّ وقد قصدنا نُجيل الطرف فى هذا الجمال :
حَياةٌ فى مَوات أم رجاء يشقّ اليأسَ فى هذى الرمال ؟
أماءٌ ذا كما أم فَيض شِعر ترقرق بالحقيقة لا الخيال ؟
كذلكما الشعوب بها عيون تُفيض الخيرَ فى جَدب الفعال
كذا كم فى قِفار الناس تجرى حياةُ المصلحين من الرجال

---

(١) كنت أفكر وأنا أكتب هذه الأبيات فى نبع الزيمة فى الحجاز على الطريق بين مكة والطائف .

عُمر والأحنف

لطَيبة جاء وفد من تميم　　من الكبراء ، وفدٌ ذو رُواء
وكان الأحنف المعروفُ فيهم　　حكيمُ تميمَ مرضيُّ القضاء
رأى عمرُ الخليفة فيه زَولا　　فصيحَ القول مشبوبَ الذكاء
فلما أزمع الوفد ارتحالا　　دعا عمرُ ابنَ قيسٍ للبقاء
فجالسه وراقبه قريبا　　وسرّحه جديراً بالثناء

***

«أأحنفُ ماعلمتُ عليك سوءاً　　وإنك ، ماعلمتُ ، أخو وفاء[1]
ولكنى رأيتك ذا مقال　　يدوّى فى المسامع ذا مضاء
وحذرنا رسول الله خَبّا　　يُرَى صَنعَ اللسان لدى اللقاء»

***

رأى عمر اصطناع القول رَيبا .　　وبعض القول ضربٌ من رياء
إذا ما أمّة كَلِفت بقول　　وهامت بالجدال وبالمراء
فلا تحفِل بثرثرةٍ وأيقِن　　بنَقص الفعل فى هذا المُراء

(١) هذا قول عمر للأحنف ؛ وقد روى أن عمر قال له : ما اتهمتك ولكن رسول الله حذرنا كل منافق صنع اللسان .

فجر الجمعة ١٩ رمضان — ١٣ حزيران

السانيـــة

سـانية قد أسرعَتْ   تَحمِـل نِيرَ السـاقيهْ[1]
تَسير فى غِشـاوة   عن الطريق غابيـهْ
قالت وقد ماطلها المسـ   ـير وهى عانيـهْ :
« هـل قرُبت غايتنا   أو لا تزال قاصـيهْ ؟
لِمثلُ سـيرنا تُرَى   به الأقاصى دانيـهْ »

* * *

ووُقِفت ورُفِعـت   عن ناظريها الغاشـيهْ
فعلمت أن لم تَزل   مكانَها كما هيـه

* * *

والنـاسُ فيهم ثُلّةٌ   تَسير سـير الماشيه
تحَسَب أن تقدّمت   على الطريق ماضـيه
لـكنهـا دائرة   كما تدور السـانيه

(١) السانية آلات يستخرج بها الماء كالساقية فى لغة مصر . والسانية أيضا الحيوان الذى يعمل فيها .

فجر السبت ٢٠ رمضان — ١٤ حزيران

نشيد المسحّر (١)

يا نائمُ اسمع وانهَضَن   هيّا فأطِع واطمَئِنْ
واسبِق إلى الخير الزمن   ما فاز إلا من بَدَر

* * *

اهجُر لخــير نَوْمكا   وابدأ بخــير يومكا
وارصد لبرّ صَوْمكا   ما صام إلا من يَبَرّ

* * *

الليل يحــدو زُهرَه   والصبح يُبــدى زَهرَه
والــكونُ يُفشى سِرّه   فاقرأه فى لوح الســحَر

* * *

هــذا الظلام الدامسُ   يتلوه صــبح شامس
فابسم له يا عابس   واستقبل الصــبح الأغر

* * *

العيش بحــر زاخرُ   المرء فيـــــه عابر
بالنجح فيــه ظافر   مَن جدّ فيه ومن صبر

(١) هذا النشيد مهدى الى حالة تكميلا لقصص رمضان .

فجر الأحد ٢١ رمضان — ١٥ حزيران

النظام والإسلام

كلّ شيء مقــــدّر موزونٌ
أحكمَ الوزنَ من برى الأشياء
وضع الميزانَ الذى وضع الأرض
وأعلى من السماء بِناء(١)
ورأيتُ الإســـلام دينَ نظام
كلُّ ما ســـنّه أراه سَواء
والمقاديرَ والمواقيتَ فيــــه
محكَماتٍ من الشـــذوذ بَراء
جعل الصف فى الصلاة وفى الحر
ب دليــلا على النظام استِواء
ليت شعرى أحائد عن نظام
مؤمنٌ بالتوحيــد قلباً أضاء؟
إنّ دين التوحيــد دينُ نظام
إنما النظمُ وحــدةٌ ، لا مِراء

(١) فى القرآن : والسماء رفعها ووضع الميزان — إلى — والأرض وضعها للأنام .

فجر الاثنين ٢٢ رمضان — ١٦ حزيران

في جنح الليل

الليـــلُ في تهويده رزين
وليس إلا زُهرَه عُيون
للريح في أغصانها حفيف
تنام من ترنيمها الوُكون
ولي إلى النجوم عَينُ راعٍ
والقولُ فيما بيننا مُبين
وتارة إلى الغصون أصغي
لله ما تُنشـــده الغصون !
ما بال بعض الطير في صياح
والصبح في الآفاق لا يَبين
أطارقٌ روّعها فصاحت
أم شفّها لظاعن حنين ؟
أنْشطُها الـكُوَيل(١) في غِناء
يقطّع الليـــل له تلحين

* * *

(١) طائر كالحمامة أسود براق ، له صوت حسن متقطع أسمعه كثيراً في كراجي .

وتارة أخلو نجيّ نفسى
والنفسُ فى حديثها شُجون
وتارة أهفو إلى صِحاب
قـــد خلّفتْ وراءها القرون[1]
أسمعُ ماأشاء من حـــديث
قد داولتـــه بينها الفنون

* **

حتى انبرى مسحِّر ينادى
يَجفَـــل من ندائه السكون
مؤذنُ الطعامِ لا صــلاةٍ
تطربُ من تأذينـــه البطون
فـكاهةٌ فى ذا الجلال صاحت
أجفل منها فـكرىَ الحزين
فقلت : لا تَجفَـــل فذاك لحن
لا بُدّ أن تختلف اللحون



(١) الـكتب .

فجر الثلاثاء ٢٣ رمضان — ١٧ حزيران

جبر واختيار

قال يوماً من بني العصر عليمٌ قرأ العلم وأحصى الفلسفاتِ
فهو يروي عن حكيم في قديم وحديثٍ من قضايا معضلات
يجمع الأقوال من شرق وغرب يجمع الشك، ويُحصي الشُّبُهاتِ:
« نحن شوكا وزهوراً قد خُلقنا وحُزونا وسهولا دمِثات
وفُراتا وأُجاجا ، وجميلا وقبيحا ، بيننا شتّى الصفات
وترى فينا ظبـــاء وقرودا وشِياها وسباعا ضاريات
هكذا نحن كما قدّر ، جئنا مالنا من حيلةٍ في ذي الحياة »

قلت: بل شوكا وزهراً قد غرَسنا وكَسونا الأرضَ ألوانَ النبات
ورددنا الحزن سَهلا ومَهَدنا سُبُلا فوق جبال شامخات
وفجَرنا الصخر ماء ، وغرسنا ها جِنانا في بقاع مُقفرات
وأجاجٍ قد جعلناه فُراتا وقبيحٍ صار معشوق السِمات
ومن السّمّ دواء قد خلقنا ومن الرمل مَرايا مُونِقات
نملك الأرض ، وفي الجو صَعَدنا قد ملأناه سفيناً طائرات
فدع الأقوال والشكّ وأقبل فاقتحم بالقلب كلّ العقبات
وامض في الآفاق مِقداما وصَرِّف كلّ ما سخّر ربّ الكائنات
هكذا نحن ؛ ملكنا كل شيء كلُّ شيء طوعنا في ذي الحياة »

فجر الاربعاء ٢٤ رمضان رمضان — ١٨ حزيران

الجمع والفرق

قد تساوينا جميعا حين قمنا للصلاه
وركعنا وسجدنا فاستوت منا الجباه
إنما نحن سواء عمّنا شَرع الإلاه
جمعتنا واجباتٌ وحقوق فى الحياه

* * *

غير أنا فى فنون العيش ما فينا اشتباه
من ذكيّ وغبيّ وأخى جِدّ ولاه
ذالك مأمور وهذا آمر فينا وناه
ذاك محروس وهذا حارس يَرعى حِماه
ذاك مخدوم وهذا خادم يبغى رضاه

* * *

وإذا حققت فالخادم مخدومُ سواه
كلهم مولًى ولكن قيل مولى وفتاه
ذلك الخلف نظام أحكمت فيه قُواه(١)
عَجَلات دائرات مُحكَمات فى تناه
كلها يدفع والدافع مدفوعا تراه
وإذا غيرت هذا النظم أوهنت قُواه

(١) القوة هنا طاقة الحبل المفتول .

فجر الخميس ٢٥ رمضان — ١٩ حزيران

يا هادى

الليل ساج والزمان داجٍ يَلُفُّنى ظلامُــه الحنون
وددت أنّى لا أحسّ ركزا يؤْنِسنى الظلام والسكون
ما حيلتى والعصر فى دَوِىّ ظلامُــه وصبحُه المبين
هواؤه والأرض فى ضجيج كأنما قد مسّــه جُنون

***

يا ربِّ ! هذى فتنــة عَمــاء قد ماج فى عالمنا الفُتون
البحر والظلام فى التطام وقد أضلّت نهجَها السّفين
ترقُب فى ظلامها بصيصا أيَانَ منك النور يَستبين ؟
يا ربنـا ! والفـكر فى ضلال ضلّت به الأوهام والظنون
والناس فى حقد وفى عِداء هَلا كهم بعقلهم رهــين
يَمضون فى أهوائهم حَيارى مَسيرُهم بجهلـكم ضَمين

***

إليك قد فاضت هموم صدرى وأعربت عن بثها الشجون
وليس إلا النارُ فى ضلوعى وليس إلا دمعىَ الهَتون
داوِ القلوب من هوًى وغلّ يُفِئْ بها السّلامُ واليقين

ســـجدة

سَجدةٌ تخفِض الجباه ولـكن
عزّ فيها مُسبِّح وتعـالى
ظنّها الجاهلون غُلّا ولـكن
هى ، فى الحق ، تَحطِم الأغلالا
تُثبت الوجــهَ والجوارح فى الأر
ض ولـكن تُقلقل الأجبـالا
خرّ فيهـا لساجد كل شىء
ووعى الدهرُ قولَه والفَعــالا
هى لله وحّــــدته فعَزّت
وتَحت كلّ غاشم يتعـالى
فى سـكون ، والقلوب مسير
يملأ الأرض همّة وصِيالا
من وعاها وعى السيادة فى الأر
ض جمــالا ورحمــة وجلالا

التراويح(١)

شهدت اليوم جمعاً ذا رُواء   تقام به تراويح الصلاة
فقالوا : ليلةُ القدر . اجتمعنا   لختَم كلام رب الكائنات
وأمَّهم فتى يُغضي حياءً   أخو تقوى تَبين على السِّمات
أجاد تلاوةً والليل يُصغى   رَخيمَ الصوت يتلو فى أناة
وبعد الوتر أصغينا لآي   تَداوَلُ بين حُفَّاظ ثِقات
وطِفلٌ فيهم لم يَعدُ عَشراً   تلا فى (الكهف) آياً خاتِمات
تلا والقلبُ قبل الأذْن مُصغٍ   يرتِّل ما تلاه فى ثبات

***

صبىٌّ فى قبيلٍ أعجمى   تلا الإعجاز فى فُصحى اللغات !
كما يُتلى بأرض العُرب لفظاً   وترتيلا ، على نأى الجهات
تلاه مثلَ ما قد كان يُتلَى   بمكة فى العصور الغابرات
أليس الأمر يا قومى عجيباً ؟   «لحقٌّ تلك إحدى المعجزات»

---

(١) كانت هذه الصلاة فى دار ناظم الدين رئيس وزراء باكستان . والصبي القارئ ابن الشيخ احتشام الحق .

سحر الأحد ٢٨ رمضان — ٢٢ حزيران

قَوَّال[1]

شهدتُ العشيّ غناءً بحَفْلٍ
بِجَمع من الفاضلين يُزانْ[2]
تفـــنّن في اللحن قوّاله
وثار الغِناء به والبيان
فصَفْقٌ بأيدٍ وضربٌ بطـــبلٍ
وزَمْرٌ تُصعِّـــده آلتان
يُشير المغنّي بكفٍّ وعينٍ
ورأس ، بدتْ كلُّها في رِهانْ
وشعرُ التصوف بالفارسيّ
وبالأردُويّ غريبُ المعان
ويسمو الغِناء إلى حافظ
وشعرِ الجلالِ بديعِ الزمان[3]

* * *

(١) القوال منشد له طريقة خاصة في الغناء . وأكثر قوله في ذكر الله ومدح الرسول وموضوعات الصوفية .
(٢) كان هذا في دار خليق الزمان الذي كان رئيس الرابطة الإسلامية في باكستان .
(٣) حافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي صاحب المثنوي .

(٨)

وقد ضقت حينا بلحنٍ قوىّ

وصوتٍ يُزلزَل منـــه المـكان

ولـكن رأيت حَماس المغنّى

وصيحاتِ وَجـــدٍ به كلّ آن

فقلت أرى الصدقَ لُبّ الأمور

به فى جميع الفنون وِزان :

أهذا الغِناء وهـــذا الضجيج

وهـذى الحماسة وَحىُ الجنان ؟

فإن كان صــدقاً ففى القلب نارٌ

وهــذا الضجيج عليها دُخان

وإن كان كِذْباً فهذا الضجيج

عُثانٌ ولا شيء إلا العُثان[1]



(١) العثان : الغبار .

شكوى الجمل في كراچي (١)

خُلقنا للفيافي والرمال   نُجاوزها بأحمال ثِقال
نُخوّض في السراب بها وحيناً   نَعوم بها على لُجج الرمال
وصبرٍ للهجير بكل خَرْق   وإقدامٍ على سود الليالي
ومَطْمَئنا الطَوى أو مضغُ شوكٍ   ونُورَد في الهواجر كلّ آل (٢)
نسير على الوقار إلى مَدانا   نَعدّ له الشهور ولا نبالي
نمانا العُرْبُ، أكرِمْ من قبيل   وَقارٌ في المقال وفي الفَعال

* * *

فما العجَلات قد جَلْجلن خلفي   أسيّرها بأخفاف عِجال
وسيرى في شوارع صاخباتٍ   بها العربات تُحْشَر كالنمال
وما هذى الجلاجل في جِراني   وفي زَنْدَيَّ تَخفض من جلالي
رآني القوم طفلا أو حماراً   ومثلُ القوم قد جهلوا خِلالي
لقد غزَتِ الحضارة كلّ واد   وغيّرت الصناعةُ كلّ حال
فمن لي بالفلاة أعيش فيها   على طَلح بها وعلى سَيال
فإني في مدائنهم غريب   كسياراتهم بين الجبال

---

(١) الجمال : تجر العربات في كراچي ، وتعلق في أعناقها وأرجلها جلاجل .   (٢) الآل : السراب

هلال العيد

رقب الناظرون، فى كلّ أفْق بسمةَ الدهر فى هلال العِيد
نَصبوا حوله العيونَ شِباكاً ورمَوه بكل طَرفٍ حديد
فمُشِيرٌ يصيح : هذا ، أراه ومُجِيبٌ يَصيح بالتفنيد
ومُناد : أراه تحت غمام انظروه ؛ لقد بدا من بعيد
ومناد يقول: لا شك، هذا. فتُجيبُ الجموع بالتأييد

* * *

قنصته العيون من بَعد لأْى إن لله دَرّه من مَصيد
يا رسولا من الغيوب نحيلا مرحباً بالمسافر المكدود
أبِنْ لى عنوانُ أىّ كتابٍ غُرةٌ منك ؟ أىّ سِفر جديد
قد قرأنا بنور وجهك بشرى فاْجعلنْه عنوان شهر سعيد
كل شهر له هلال ولكن بسمة الدهر فى هلال العيد

رمضان سنة ١٣٧٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة الخميس أول رمضان ١٣٧٢ هـ — ١٤ أيار ١٩٥٣ م

حال الحول

هذا الفلك الدوّار ، المتقلب بالليل والنهار ، يقلّب لك صفحات ، ويُملي عليك عظات . فاسمع عظاته ، وسطّر صفحاته . سطّر الباقيات الصالحات ، واملأ صحائفك بالخيرات ، وابسِم الظلام والضياء . ودَع قول أبي العلاء :

إن دنياك من نهار وليل وهي في ذاك حيّة عَرماء

فبياض دنياك والسواد ، هما للعمل صفحة ومداد . أجِد الإنشاء والتعبير ، وأحسِن التنميق والتسطير . وزد على توالي الصفحات إتقانا ، وعلى مرّ الساعات إحسانا . واصِل الأمل والعمل ، واكتب ولا تملّ ، وامضِ على الطريق ، وسل الله التوفيق .

***

إن دنياك من نهار وليل وهي في ذاك صفحة ومداد
فاملأ الخير والجميل وسطّر أسطراً يستضيء منها العباد

جهاد الحياة

دنياكَ بيداء ، يَضرِبُ فيها الأحياء ، فيها خِصْبٌ وجَرْد ، وغَور ونَجد ، وحُزون وسُهول ، ومعروف ومجهول . وفيها طريق لاحب ، وشِعاب تضيق فيها المذاهب . والسَّفْر على المحجّة قاصد ، أو عن الصراط حائد .

فامضِ على سَنَن ، وجانب اليأس والحزَن ، وارقَ الهضاب ، واقتحم العِقاب ، واهتد في النهار بالأعلام ، وبالنجوم في جُنح الظلام واصِلِ السير وغالب الكرَى ، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى . نِعْم رفيقاً العَزْم ، وحَسُن صديقاً الحَزْم .

***

دنياكَ فيهــا دَمِثٌ وحَزنٌ
وعنـــدها الوِهاد والنُّجــود
بالســير فيها والسُّرَى يُرجَّى
أن يَبلُغ الســافر ما يريد

المال فى أكُفّ الأحرار

لله رجال ، لا يَعبدون المال . إن نالوه نثروه ، وفى الخير بذروه . وإن فاتهم لم يُتبِعوه ندماً ، ولم يُدموا وراءه كفًّا ولا قدَماً . تملك الدنيا أيمانُهم ، ويصرّفها إيمانُهم ؛ ولكنها لا تملكهم ، ولا فى شِباكها تُربِكهم . تمتلىء بها جيوبُهم ، وتخلو منها قلوبُهم . إن أقبلتْ لا تُضلّهم ، وإن أدبرتْ لا تُذِلّهم . هى عندهم إلى الخير بلاغ ، وعُدّة لدفع عات وباغ . وليست إلى البغى وسيلة ، ولا عُدّة لاقتراف رذيلة . إنما المعالى كَسبُهم ، والله حَسبُهم .

* * *

حَرِّر النفس ، لا تكن عبدَ مال
ومتاعٍ وكُنْ لخير وبِرّ
ذلك المال والمكاسب طُرًّا
لا تساوى تنكيس هامةِ حُرّ

الأنجــاد

فى الناس آحاد ، للملهوف أنجـاد ، وبالمعروف أجواد . تؤمُّهم فى الأَزَمات ، فينُجدونك على العِـلاّت . لا يُسألون النجدة إلا بذلوها ، بل يبذلونها وإن لم يُسألوها . مِن كل ذى نجدة ناصر ، يَصْدق فيه قولُ الشاعر :

إذا استنجدتُهم ودعوتُ بكراً
لنُصرتنا كسرتُ بهم همومى

من تَدْعُ منهم بالنهار أو الليل ، فما هو بنِكْس ولا زُمَّيل .

ومن الناس من يسمع الدعاء ، كما تسمع الصخرة الصماء . إذا استنصرتهم لاينصرون ، ويخـذلونك وهم يقدرون . ليس لديهم فى الـكُرُبات ، إلاّ اللَّوم والسخرية والشمات . شَدّ ما اختلفت فى الناس الضرائب ، وشدّ ما تباينت المذاهب .

إنّ فى الناس مُنْجداً أرْيَحيًّا
تعشـقُ البرَّ كفّهُ وفؤاده
يجمع المـال للمعالى ويَفْنى
فى المعالى طريفُـه وتِلاده

أفرأيتَ من اتخذ إلاهه هواه

يا مَن غَوَى ، فعبَد الهوى ، واتخذ كل حين صنما ، يبتغى عنده مَغنَماً ، يبدّل لكل مأرب محَجّته ، ويحوّل لكل مطمع قِبلتَه . قد تقسّمَتْه الأهواء ، ففؤاده هواء . ونسى نفسه لأغراضِه ، وأضاع جوهره لأعراضِه !

اعرف الله ، تتحرر مما سواه . ووحّد ربك ، تُوحّد نفسك وقلبك ، وتهتدِ فلا هَوَى يُضِلّك ، وتعِزّ فلا مَطمَع يُذلّك ، ويَستصغر الدنيا همُّك ، ويسخّرها إباؤك وعَزْمُك ، وتستغنِ فلا قليلَ يَطّبيك ولا كثير ، وتعلم كيف يَملك الدنيا فقير[1] .

***

يا جاعلا إلهه من هوى
أو رهبة أو صنم أو بشر
أعبُد إلٰها واحداً وأَجْمَعْ
نفسَك تَصعدْ فوق كل القدَر

---

(١) الفقير عند الصوفية الذى لا يقيده ما يملكه ، إن ملك الدنيا حوتها يده وخلا منها قلبه .

التقوى في المعترك

يا حِلْس الدَّعة ، وحَبِيس الصومعة ! فررتَ من البلوى وزعمتَه تقوى . اغْشَ معاركَ الحياة ، ثم ابتغ فيها النجاة . والزَم مكارم الأخلاق ، في الجامع والأسواق ، والمطامعُ لائحة ، والفِتن غادية ورائحة .

هذا العالم مَعبد ، كل مُصلح فيه عَبْد . أعمِل للخير يدكَ ولسانك ، واعمُر بالتقوى جَنانك . وفجِّر الماء من الحجَر ، وأنبِت الزرع والشجر . وحرِّكْ قلمَك أو إزميلَك ، واملأْ قِمَطرك أو زَبيلك . وامضِ في الحياة مجاهداً ، ولله في كل عمل عابداً .

***

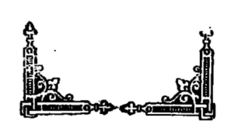
أيها العابد المسبِّح ! سبِّح
في جهاد الحياة في الآفاق
مثلَ ما كبّر الأوائلُ منّا
ووميضُ السيوف في الأعناق

الاستعلاء على الأهواء

يا تَبيع النزَغات ، وأسـير الشهوات ، مع الأهواء تَميلُ كلّ مَميل ، و إليها تَسيل كلّ مَسيل ! سَيطر على نفسك بعزمك ، واربِط على قلبك بحزمك . الشهوات لا أنهاكَ عنها ، ولا أحرمك منها ، ولـكن كن فيها سيداً صعب القِياد . لا عبداً ذليل المقاد . وعلّمْ نفسـك الاستكبار ، على الإسار ، والنفور ، مما يَبور ، والصدود عن الوِرد الذليل ، والمَرعَى الوَبيل . أذِقْها أذِقها اللذاذة العالية ، وأنِلْها أنِلْها المُتعة الغالية ؛ اللذاذَة التي لا تَنْفَد ، والمتاع الذي لا يُحدّ .

***

تاركَ النفس في المَخازي تَسوم ألْجِمْنَها بالعزم ، عما ترومُ
وارفعنْها عن الدنايا جميعاً وأذِقْها لذاذةً لا تَريمُ



الثرثارون المتفيهقون

في الناس متكلم لا يَسمع ، ومُجادل لا يَقنع ، يَزهاه القولُ ويَغُرُّه ، فيمضُغ الكلامَ ويَجترّه . مولَع بالمِراء ، يُكثر فيه الهُراء إن قلتَ لشيء : أحمر ، قال بل فيه خُضرة ، وإن قلتَ هذا أخضر ، قال أرى فيه كُدرة . والمعنى الهَيّن في اللفظ البيّن ، يلُفّه من الهذَيان بغُثاث ، ويَحوطه من اللجاج بعَجاج . ويجعله من أخلاط التعبير ، كحبة برّ في تبن كثير . يعلو في الكلام بوقه ، وتبور في العمل سوقُه .

آفة الناسِ هؤلاء ، أهلُ الجدل والرياء ، الثرثارون المتفيهقون ، الضالون المُضِلّون .

* * *

هذا الألدّ الخصِم المماري ذو مِقوَلٍ مُماحِك ثَرثار
بيانُه في كل صَوب ساري لكنه في الفعل ذو بَوار

أيها الحاسد

أيها الحاسدُ أسيرَ الغمّ ، الشقىُّ بما على الناس من نِعَم ! يملأ صدرَه الوَسواس ، وتلتهب بحقده الأنفاس !

إن الذى تحسُد ما جَنى عليك ، ولا أساء إليك ، ولا أخذ نصيبك من النعَم ، ولا مَنَعَك سَهمَك من المَغنَم ، ولا سَدّ عليك الطريق ، ولا أحاط آفاقك بالضيق .

إن هـذا المحسود على النعماء ، له آلاف النُّظَراء ؛ إن بقى فيهم لم يَضَعْك ، وإن زال منهم لم ينفَعْك . اشغَل نفسَك بنفسِك ، وازجُ يومَك بعد أمسك . واغشَ حَلْبة السِّباق ، غير يائس من اللَّحاق . واعلم أن الناس أشباه ، ولا حرج على فضل الله .

* * *

أيها الحاسدُ الذى ضاق صدرا

وغدا من أُوارِه فى احتراق

شبّ هذا السعيرَ فى العزم واترك

ضيقَ صدر لوُسعة الآفاق

ليلة السبت عاشر رمضان — ٢٣ أيار

أيها المغموم!

أيها الواجمُ المغموم، البائتُ من نَعمائه في هموم، المطرقُ كأنما خرّت الأفلاك عليه، وكأنه ثورٌ يحمل الأرض بقرنَيه، تضحك الدنيا وهو عابس، وتُشرق الآمال وهو يائس.

ارمِ الزمانَ بسهام الآمال، واغزُ الحِدْثان بسلاح الأعمال.

واعلم أن الدنيا لا تَقهرك بمثل وُجومك، ولا تَغزوك بأثقل من همومك، وأنّ وراء الظلام فجراً، وخلْفَ الغمام بدراً، وأن ضحِك الرياض في بكاء السحاب، وحياة النبات في ضيق التراب، وأنها الغَمرات ثم يَنجلين، والظُلماتُ ثم يُوَلّين، وأن حالًا لا تدوم أبداً، وأن مع اليوم غداً.

(فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يُسراً).

***

أيها الواجمِ العَبوس تهلّل
واملأ العين من ضياء النهار
واسْعَ في الأرض آملا وترقّب
بَسْمة اليُسر في دُجى الإعسار

ليلة الأحد حادى عشر رمضان — ٢٤ أيار

رَبِّ زِدْنِي عِلْما

المغرور الجاهل ، يقوم على الساحل ، يقول : هذا البرّ وهذا الماء ، وهذه الأرض وتلك السماء ، وهذه النجومُ سائراتٍ فى حباكها ، دائرات فى أفلاكها . أحاط بالعالَم بصَرى ، ونفذت فيه فِكْرى .

والعالِم يركب الثَّبَج ، ويَغوص فى اللُّجج ، ويقول : نظرتُ طويلا ، وعرفتُ قليلا . ماذا تحت الماء من أعماق ، وماذا فيه من أنفس وآفاق ؟ وماذا بعد البحر الهائل ، من معارفَ ومجاهل ؟ ما أرضنا فى هذا العالَم ، إلا كما يلقى فى مَهْمهٍ خاتَم .

ربِّ زدنى علما ، وهَبْ لى حُكما .

***

كم جاهل يخال من جهله ... أن قد طوى العالَمَ فى علمه

وما طوى العالم لكنه ... أحاط بالمحدود من وَهْمه



(٩)

كونوا قوّامين بالقسط

يا من ضلّ وغوى ، واتخذ إلٰهه الهوى ! يَعـدّ على الناس العيوب ، ويُحصى عليهم الذنوب . وهو مبرّأ من كل عيب ، ما فى كماله ريب ! الحقّ ما فيه هواه ، والباطل ما خالف دعواه .

أنت يا مسكين ، كما فى الـكتاب المبين : « إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون » .

احكم بالقسطاس ، بينك وبين الناس . واعرف الحق لخَصمك وعُداك ، واعترِف به على نفسك ومولاك . والزَمْه دون شطَط ، فى المَـكرَه والمنشَط .

يا جاعلا إلاهــه من هوى
وعابدا أصــــنامه من وَهَم
الحقُّ فالزمــــه وحرّر به
نفسَك من رِقّ الهوى والصنَم

الحق لا يزول ولا يَحول

الأيام دُوَل ، والزمان حِوَل ، والأوقات غِيَر ، والساعات عِبَر . والناس فى صعود ومنحدَر ، كأنهم فى أرجوحة القدَر .

كل سلطان زائل ، وكل حال حائل .

إلا أنصارَ الحق الأخيار ، وأعوانَ الخير الأبرار .

أولئك دولتهم بالحق قائمة ، وبالخير دائمة . والحق لا يزول ، والخير لا يَحول . لا يرفعهم المنصِب والمال ، ولا يخفضهم الاعتزال والإقلال ، ولا تتداولهم الأعراض ، ولا تبدّلهم الأغراض .

هم على الصراط سائرون ، وعن الباطل ناكبون .

إنما الحقّ فى الحياة طريقٌ
واضِح القَصد ليس يُخشى ضَلاله

ومن الغَىّ كلّ حين طريق
حائرُ القصد ، هالكٌ ضُلاّله .



الحياة سير دائم إلى الكمال

ازدد كل يوم علما ، قليلا أو كثيراً ، واعمل كل يوم خيرا ، صغيراً أو كبيرا . وقل كلّ يوم كلمة طيبة ، طويلة أو قصيرة . واعتقد نيّة خيّرة ، هيّنة أو خطيرة . واجعل إن قدَرت وقتك إلى الخير مَنهجا ، وأيامَك إلى الكمال دَرَجا . واحذر أن يتشابه عاماك ، بل أن يستوى يوماك . واجهد أن تُرْبِيَ زيادتك فى البر، على زيادتك فى العمر . فإرباء العمر على العَمل فَنَاء ، و إرباء العمل على العمر نماء .

الحياة مَسير فلا تَقف ، وتحليقٌ فلا تُسِفّ ، وتقدُّم فأقدِم ، و إقدام فلا تُحجم .

ألا ترى المنار يلوح ، والداعىَ يثوِّب و يصيح ؟ ألا تسمع الجرس ينبّه الغافلين(١) والحادىَ يحثّ السائرين ؟

إن هـــذه الحياة سيرٌ حثيث
من يُبَطِّئْ فلا يَلُمْ غيرَ نفسهْ
وصـــعودٌ إلى المعالى دءوب
خاب من كان يومُه مثلَ أمسه

---

(١) جرس القافلة ، يضرب ليستعد الركب للسير .

ليلة الخميس خامس عشر رمضان — ٢٨ أيار

أســـير المآرب

يا من نال مَنصِباً فعبَّده ، وجمع مالاً وعَدَّدَه ، فأسَره وقيّده ، وركب المآرب فركبته ، وملك الرغائب فملكته .

يا من بَلغتْ المنى عينُه ويدُه ، فلم يبق ما يفتقده . وكلما رأى سلطاناً أتبعه ، فسار معه إمّعة

أتعرف ما ربحت وما خسرت ، وما فقدت وما به ظفرت ؟ فقدتَ نفسك ، وعقلك وحسّك . وأصبت المتاع الحائل ، والمرَض الزائل . فقدت الجوهر فى طلب الأعراض ، ولقيت حياتك بالإعراض ، وآثرت بالطِلاب ، كاذبَ السراب . أيها المغبون ! كذبَت الظنون ، أصِب نفسك وافقِد ما تشاء ، كلٌ ما عدا النفس هَباء .

اعجَبْ لِغِرّ طالبٍ أعراضَه
عن جوهرِ النفسِ الأبيّة غافلِ
يا جاهلاً سِرّ الخــلود بنفسه
ماذا تُفيد من المتاع الزائلِ ؟

أضوَت الإنسانَ الحضارة

يا أسيرَ المَدَر والحجَر ، وحَبيس الدُّور والحُجَر . حجبتْ عنك الهواء والضياء ، وقطعَتْك عن آفاق السماء . وأعَلّت حسّك ووجدانك ، وفلّت حدّك وسِنانك . أيها الفكر الداجن ، والعزم الآسِن ! اخرج إلى سعة الفضاء ، بين الأرض والسماء . وانطلق مع الرياح ، كل مساء وصباح . وانظر إلى الشمس فى مطالعها ومغاربها ، وإلى النجوم فى حُبُكها ومَسارِبها . واصْحَب الخليقة فى سهلها ووَعرها ، وتمرّسْ بها فى قُرّها وحَرّها . واشحَذ حسّك وقلبك وذَكاءك ، وهمّك وعزمك ومَضاءك . وعش فيها قويا طليقاً ، من رِقّ الحضارة عتيقا .

أيا قابعاً فى الذرَى لا يَريم   يَعيش من الكون فى خاتَم
حَباك الإلٰهُ المرَادَ الفسيح   ففِرّ إلى فسحة العالَمِ

يا خائفاً من نفسه

يا خائفاً من نفسه ، ونَفوراً من جنسه ، تحقِر كلَّ من يمُتّ إليك ، وتُكرم كلَّ واغِلٍ عليك ، وتخاف من ماضيك وحاضرك ، وتبرَأ من مآثرك ومفاخرك . بَهرَتْك حضارة طار لها لُبّك ، واستطار لها قلبك ، وبرَق فيها بصرك ، وحار فيها نظرك .

لا تهولَنْك هذه التهاويل ، ولا تروعنْك هذه الأباطيل ، واجمع قلبا مُرتاعا ، وعقلا ذهب شَعاعا ، وجِدْ نفسك المسلوبة ، وعزّتك المغلوبة . ثم انظر يبطلْ سحرُ الساحر ، ويرَ الحقائقَ الناظِر ، وتزلْ عنك المخاوف ، من هذه الزخارِف .

يا غويّا أضل فى الأرض نفسا
وجرى فى الفَلاة خلف السرابِ
قد تركتَ الأمواه خلفك فارجع
لا تَغُلك الغيلان فى ذا اليَباب

العقل والعشق(١)

عقلُك نجمٌ ولكن خَنّاس ، وإمام ولكن ذو وَسواس . ودليل يذرَع الأرض ، ويَقيس الطول والعرض ، ويَغور ويُنجد ، ويَجور ويَقصد . وناظر يُحملق فى الدقائق ، ويَبرَق فى نور الحقائق . وتاجر يحسِب نفعاً وضُرا ، وربحاً وخُسرا . وقائد هيّاب ، لا يُقدِم إلا بحساب .

والعشق يطوى الأقطار خَفْقُه ، ويُحرق الآفاق بَرقُه ، ويُقدِم غير ناكب ، لا يبالى العواقب ، لا يَعدّ المراحل ، ولا يعرّج على الساحل . ويجمع الطريق والغاية ، والبدء والنهاية . رأيتَ الحياة بهُداه ، وبه عرفت الله .

العقل يَهديك الطريق تلمساً
ويكِلّ فيها شِبره وذِراعه
والعشقُ يَمضى فى وَميض بُروقه
يطوى العوالمَ خفقُه وشعاعُه

---

(١) العشق عند الصوفية الوجدان وما يتصل به .

الأسرة

روضة يَنضُرُ فيها الزهَر ، وجنّة يَيْنَع فيها الثّمَر ، ودَوحة تأوى إليها الأطيار ، وتحُفّ فيها الكبارُ الصغار ، وتُؤثرها بجَهد الجناح والمنقار . ومَعبَد يقوم عليه الوالدان ، وبرّهما مقرون بتوحيد الدّيان[1] ، ويتراحم فيه الوِلْدان ، « والرحم شِجْنة من الرحمن »[2] ومدرسة تُنَشّأ فيها الفضائل ، وتُرَبّى فيها الشمائل .

من رعى الأسرة وربّاها ، وعرف حُرمتها وزكّاها ، فقد أحكم من الأمة الأساس ، وقوّم فيها الساس . ومن استخفّ بالأسرة ففرّقها ، وعمَد إلى أواصرها فمزّقها ، ورجا أن يُنشئ الأخلاق ، فى مجامع الأسواق ، فقد فال رأيا وخاب أملا ، وضلّ سعيا وساء عملا .

أيها القُوّام على الأمم ، أدركوا الأسرة من أَمَم ، قبل أن يَستفحل الداء ، ويُعجز الدواء .

أرى أسَراً هجرت دُورَها   هجرن إلى الشارع المسجدا
فليس الإمام بمحـــرابه   ولا صَوتُ تال به رُدِّدا

(١) قرن بر الوالدين بتوحيد الله فى آيات كثيرة .
(٢) من حديث نبوى .

الهُوَىّ والرُّقِىّ

من شاء هَوَى وما أيسر الهُوِىّ ! ومن شاء ارتقى وما أعسر الرُقِىّ ! من شاء سما إلى الإنسانية فى قمتها العالية . ومن شاء أخلد إلى البهيمية فى قعر الهاوية . من شاء وزن الدنيا فرجح بالهمة والعزم ، ومن شاء وزنَتْه بقنطار من اللحم والعظم . من شاء طمَح إلى لذات يضيق عنها الفلك ، ومن شاء ارتبك فى شهوات كميون الشَبَك . من شاء طوى العالم فى عزمه وجَهده ، ومن شاء طواه العالم فى لحده . من شاء سخّر العالم وذلّله ، و بلغ من ورائه ما أمّله ، وعرف قصده وسبيله ، وحاديَه ودليله ، ومن شاء تاه فى الصحارى والمجاهل ، وحار فى بحار ما لها من سواحل ، من شاء زكا فسما فاتصل بالله ، ومن شاء « أخلد إلى الأرض واتّبع هواه » .

إلى اللُّوح فاطمَحْ كحُرّ الصقور
ولا تقبلنْ ذِلّة الداجنِ
تحدَّ الرياح بخفق الجناح
وحَلّق عن الموردِ الآسن

الشدة واللين

ابذل مودّتك غير ضنين ، وابسط محبتك غير ظنين . وأنِلْ عُرفك البعيد والقريب ، والأهل والغريب . وألِنْ جانبك واخفِض جناحك ، وأشِعْ مروءتك وابذُل سماحك . وكن شجرة ظاليلة مُثمرة ، وروضة أريضة مُزهِرة . ولكن لا تُخلِ من الشّلاء ثمرك ، ومن الشوك زهَرَك ، وامزج مرارة الإباء بحلو الأخلاق ، كما يتلألأ الماء فى الشفار الرقاق (١) . فإن سامك أحد الهوان ، أو طغى عليك الطغيان ، فأجّج ماءك نارا ، واجعل نسيمك إعصارا . وأخلِف ظن الطامع ، وكن لأنفه الجادع . وأرِه كيف تكون عزة الحليم ، وشجاعة الحكيم .

رُبَّ وجــه يَغُضّ عنك حياء
وهو يوم النزال وجــهٌ وَقاح
عزة فى تواضـــــع ، وإباء
فى ابتسام ، كما تلوح الصِفاح

---

(١) مأخوذ من قول المتنبي :
كرم خشن الجوانب منهم فهو كالماء فى لشفار الرقاق

بين الظاهر والباطن

كم مُسبِّح أيقظ لسانه وأنام قلبه ، وحرَّك بنانه وسكَّن لُبّه . وكم مُصلٍّ أطال الصلوات ، وهام من الغيِّ في فَلَوات . وكم واعظ صقَل بيانه ، وأغفلَ جَنانه . وكم داعية ينصر قولُه الفضائل ، ويُعجبُ فعلُه الرذائل .

شدَّ ما تكاذبت الأيدى والألسنة ، وتخاذلت الدعوى والبيِّنة .

فلا وربِّك ! حتى يكون الفعل على اللسان رقيبا ، والضمير على البيان حسيبا ، وحتى تُظهر الجوارح ، ما تُكن الجوانح ، وحتى تتشابه البواطن والظواهر ، وتَصطلح القَسَمات والسرائر ، وحتى تكون عبادتك في قلبك ضياء ، وفي عزمك مَضاء ، وفي نفسك أملا ، وفي كفِّك عملا .

يا عابداً لسانُه ذاكر ... وقلبه عن ذكره في سُبات
لسانه حيٌّ وفي صدره ... في ظلمة الغفلة قلبٌ مَوات

العالم كتاب

العالم للبصير كتاب ، يُفضى فيه باب إلى باب ، لا تَنْفَدُ صفحاته ، ولا تفنى عباراتُه . كل لفظ فيه للهدى ، لم يُخَطَّ حرف فيه سُدى . البحار من عباراته العميقة ، والنجوم من إشاراته الدقيقة . والجبال من مبانيه الرائعة ، والسهوب من معانيه الواسعة . والأشجار والأزهار ، من بدائع الأشعار .

يتأمّل البصير فى عباراته و إشاراته ، وحقائقه واستعاراته ، وكنايته وتصريحه ، ورمزه وتلويحه . يُكسب الغامضَ اتضاحا ، ويَزيد الواضح إيضاحا . وكلما نظر انكشف له سِتر ، وانفتح له سرّ .

ذلك العالم العجيب كتاب
تتقرّى عقولُنا أسراره
يَبهَر القارئَ المفكِّر فيه
كلَّ حين عبارةٌ وإشاره

المرء حيث يضع نفسه

من يكرِّم نفسه يَلقه الناس بالتكريم ، ومن يُهنها يهينوه وهو المُليم . فضَع نفسك حيث تشاء ، فذاك مكانُك بين الخلَطاء .

اطمح إلى الدرجات العُلَى واصعَد ، وتشوَّف إلى أسمى الذُّرى واجْهَد . ولا يَعرِضْ أمران إلا اخترت أشرفَهما مَقصدا ، وأشقَّهما مَصعدا ، وأبعدَهما منازل ، وأصعبهما مراحل .

إن تكاليف المطالب كِفاء أقدارها ، ومصاعبها على قياس أخطارها .

فريني أنَل ما لا يُنال من العُلَى
فصعب العُلَى فى الصعب والسهلُ فى السهل

وعظَم المغانم بعظَم المغارم ، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم . وإن أشفقتَ من بُعد الشُّقة ، وطول المَشقة ، فاعلم أن عزائم الرجال ، تُيسِّرها الأعباء الثقال . واذكر لَذة الراحة بعد التعب ، والوِجدان بعد الطلب .

أحلِّئ نفسى عن موارد ذلة وأزجُرُها عما يَشين من القصد
« وأكرم نفسى إننى إن أهنتها
وحقك لم تَكرُم على أحد بعدى »(١)

(١) هذا البيت لشاعر قديم .

قوام الحياة

قِوام الحياة عقيدة صالحة ، وسُنّة في العمل واضحة ، بها تُهدَى السبيل ، ويَسهل كلُّ عسير ، وتَجد في الضلّات هُدى ، وتصبرُ إذا طال المدى .

وبدونهما تضلّ ، وإن اهتديت تكلّ . وترى العجز رفيقك ، ويقطع اليأسُ طريقك ، وتشتبه عليك الأعلام ، وتستهويك شياطين الأوهام . وبئس زاد السافر الضلال ، وساء رفيق السائر الكَلال . وشرّ ما يُمنَى به الريب والتردّد ، والحيرة والتبلّد . أشعِل عقيدتك في الحياة ، واتخذها منارَ النجاة . وحالف الأمل تُفلح ، وصاحب العمل تُنجِح .

الناس في هذى الحياة كراكبٍ
بَيداء يُبلِس في مَداها الراكب
تهديهمُ قصدَ السبيل عقيدةٌ
ويُقيمهم فيها مَسـيرٌ دائب

كرّ الغداة ومرّ العشيّ

إن عددتَ الليل والنهار ، وراقبتَ الفلك الدوّار ، فأحرِ أن يُصيبك الدُّوار ، وأن يروعَك كرُّ الليالى والأيام ، وعدُّ الشهور والأعوام ، وأن تَشغل نفسك بآتٍ تتطلّع إليه ، وماض تتحسر عليه .

اجعل حسابك أملك وعملك ، لا سنّك وأجلك ، وكُن كراكب السفينة ، تجرى وهو مستقر ، وتُرْسى وهو فى عمله مستمرّ .

قوِّم أمورك ، لا شهورك ، وقدّر أعمالك ، لا أحوالك[1] . إنما عُمرك ما حُزت باليمين ، لا ماعِشْتَ من السنين . و إنما سِنّك ما أفَدْت ، لا ماعدَدت . كُنْ فلَكَ نفسِك . وتقويمَ يومك وأمسِك .

يا أسير الأيام بالناس تجرى جِريةَ الماء مُزبدا ، بالهشيم
قوّم الوقت بالمساعى وأقدم لا تقلّب صحائف التقويم[2]

(١) الأحوال : جمع حول .
(٢) التقويم الفلكى .

غني وفقـــــير

ثَرِيٌّ جمّاع للمال ، له كلّ حين يحتال . ويقترف فيه الحرام والحلال . يَجمع ديناراً إلى دينار ، وهَمُّه قنطار إلى قنطار . فغناه دنانير ، وفقره قناطير . وهو بين هَمَّين ، حفظِ ماحصَّل ، وتحصيلِ ماأمّل ، وفى غمّين ، مما كسب وأنفق ، وما سعى إليه فأخفق .

وفقيرٌ وجَد الكَفاف ، ومَلَكَ العَفاف . يَغْدو إلى سعيه راجيا ، ويروح إلى عُشّه راضيا . أعتق من رِقّ المال نفسه وأخلاقه ، واتخذ المكارم ذخائره وأعلاقه . لو سَلَبْتَه الدنيا ماأفقَرْتَه ، ولو أعطيته الدنيا ما أبطرْتَه .

أيُّ هذين الذليل وأيهما الأبيّ ، وأيهما الفقير وأيهما الغنى ؟

يا عابداً للمال يَتْبَعه ويجمعه سُدى
انظر إلى الحر الذى بالمال يَفدى السؤددا

الحب والبغض

الناس من الحب والوئام فى دار السلام ، ومن البغضاء والنفور ، فى عذاب وثبور .

تمثّلْ جماعة قلوبُها بالحب خافقة ، وألسنتُها بالمودة صادقة ، وأيديها على الخير متصادقة . كل واحد يعمل لنفسه وذويه ، وما يحب لنفسه يحب لأخيه ، ويحفظ عشيره فى غَيبه ومَحضَره ، ويرعاه فى حضَره وسفَره . قد تقارضوا عدلاً وإحسانا ، « ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ إخوانا » .

وجماعة قلوبها تخفُق بالشَّنَآن ، وأنفاسها تزفِر بالنيران ، وأيديها تمتد بالعُدوان . وجوه متلاعنة ، كما يتلاعن أهل النار ، وأيدٍ متشاحنة ، بالانتقام والثار .

ترى كأهل النار بغضها ومقتها ، « كلما دخلت أمة لعنت أختها »

* * *

هذه الحياة بها القلوب نوابض
كالكهرباء بها الجوانح تخفُق
النـــور فيها بالمودة ساطع
والنار فيها بالعـــداوة تُحرق

المعروف

ازرعه كل حين ، فستجنيه على مرّ السنين . واغرسه فى مَيثاء مُخْصِبة ، أو فَيفاء مُجدبة ، فستراه شجراً أخضر ، ذا ظل وثَمَر ، ناضراً إن سقيتَه أو أغفلتَه ، مُثمراً إن تعهدته أو أهملتَه . وستُجزاه دون التماس . « لا يذهب العُرف بين الله والناس » . وهب أن المعروف لا يعود إليك ، ولا يُجدى عليك . افعله غير مستنجح ، وابذله غير مستربح . فهو بالكرم خليق ، وللحرّ نِعم الرفيق . ما أجملَ مُحَيّاه ، وما أضوعَ شذَاه ، وما أحسنه فى كل حال ، ورحم الله من قال :

ولم أر كالمعروف أما مَذاقه
فحُلو وأما وجهه فجميل

* * *

اغرِس العُرف لا ترجّى جزاء
اغرِسَنْه لبهجة وجمال
ذلك الغَرسُ سوف يخرج دوحا
ذا ثمارٍ وبهجةٍ وظِلال

العيـــد

مضى الشهر المجيد ، وهـذه ليلة العيد . حملنا من رمضان ما شَقَّ وما هان ، و بلغنا بحمد الله غاية الرِّهان . فاغتبطى يا نفس بما أحسنت ، وما أسْرَرْتِ فى البرّ أو أعْلَنْتِ . ولا يهولَنْكِ ما بدَر من هفَوات ، وما سقط من زلاّت . واجعلى كفارة الإساءة إحسانا ، واسألى الله توفيقاً وغفرانا . وارقبى فى غدك الخير ، ولا تملّى السَّيْر ، طامعة فى أبعد الغايات ، طامحة إلى أعلى الدرجات . وتشوّقى إذا ادلهمّ الظلام ، إلى الضياء ، وأصيخى إذا كلّت الأقدام ، إلى الحُداء ، ضياءٌ على الظلمات خفاقٌ ، وحُداء تُدوّى به الآفاق .

اسلـكى سُبل النجاة ، واقصدى فى مسيرك الله ، لا تقنَعى عمـا سواه .

أيها السالك الحياةِ تقـــدّم
كلّ يوم على طريق الحياة
لا تقِف فالحياة ســيرٌ دءوب
ليس فيها لواقف من نجاة


محتويات الكتاب

فهـــرس

صفحة

النفحات الأولى :

صفحة

النفحات الثانية :

صفحة

النفحات الثالثة :

صفحة

الحرمين
٧٢ شارع مصر والسودان - حدائق القبة تليفون ٨٢٠٣٩٢

الناشر


مكتبة النور
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع الأهرام، روكسي، مصر الجديدة، هاتف ٢٥٨٤٥٦١٣